آسيا رحاحلية

أوركسترا الموت

رواية

مكتبة نوميديا

الجزائر تقرأ
«الجزائر تقرأ»

أوركسترا الموت

اسيا رحاحلية
أوركسترا الموت
ردمك: 978-9931-677-26-0
الإيداع القانوني: السداسي الثاني 2018

الجزائر تقرأ
8 شارع حساني يسعد، الجزائر الوسطى
مدير النشر: عبد الرزاق بوكبة
إيميل: nashr@dzreads.com
/dzreads @dz_reads dzreads.com



آسيا رحاحلية

أوركسترا الموت



إلى العظماء حقا:

الذين يقرؤون.

«المستهين بقدرات النساء،أتمنى أن تُعاد طفولته من غير أمّ»

نجيب محفوظ

«أيها الرجال العظام في المحفل

هل نستطيع أن نبلغ الحقيقة فنكيّف حياتنا بموجبها؟

كلا! لنبحث إذا بكثير من العناية ولا نيأس.»

القديس أوغسطين

عزيزي القارئ:

هذه حكاية من نسج خيالي، وأيّ تشابه لشخوصها أو أفكارها مع الواقع فهو مقصود!

السقوط من حلمٍ شاهق

سوق أهراس أخيرا..

الوقت عصر والطقس دافئ لا يوحي بأنّ الشهر ديسمبر.

في السماء غيوم رمادية متفرّقة وشمسٌ خجولة تظهر لحظةً، ثم تختفي.

شارع «طريق تبسة» غاص بالمارة، مزدحم كالعادة. الجميع في عجلة كأنّ حدثا عظيما سيفوتهم. عدد الراجلين يكاد يتساوى بعدد السيارات والحوانيت والتجار والبضائع. طاولات باعة «كلوندستان» منتشرة بشكل فوضوي على أرصفة ضّيقة لتزيدها ضيقا. وعلى جانبي الشارع بيوت ودكاكين، بطابقين أو أكثر، متلاصقة كأيام الأسبوع، ونسوة محجّبات وسافرات، في ذهاب وإيّاب.

كرنفال من المحلات: محلات ملابس، محلات أحذية، محلات أقمشة، مخابز، محلات تبيع البيتزا وأخرى تبيع كل شيء. وفي الزوايا يجلس باعة الشاي والفول السوداني، أمام بضاعتهم، كتماثيل من شمع.

طاغست[1] أرض الحضارات وقبلة السماء السخيّة للتربةِ الولود.

مدينة مستعجلة على الدوام، تستقبل الصباح بنبض لاهث وأنفاس متلاحقة، ثم تمضي نحو النهار بخطوات قصيرة سريعة كراقصة غجرية. وأنت تحاول أن تجد طريقك في زحمة شوارعها، تكاد ترى بأم خيالك حشد العبيد، حفاة، أنصاف عراة يقودون عربات الأسياد وسط فوضى السوق أين تعرض للبيع رؤوس الأسود المحنّطة وتماثيل الحجر وأوراق الحلفاء، وليكاد يصل سمعك صخب الباعة والحكّائين والسحرة وصنّاع السيوف والفخّار والزرابي في تلك الحقب الغابرة من التاريخ، وليس مستبعدا أن يتهيأ لك رؤية «لوكيوس[2]»، يدقّ بحوافره المكان، بعد أن شاءت الصدف أن يمسخ حمارًا فمضى في مغامراته، ممعنا النظر في غباء البشر وقسوتهم إلى أن نجحت

1) طاغست: اسم سوق أهراس قديما، اسم للمدينة النوميدية، التي كانت مدينة أمازيغية تقع في إحدى مقاطعات مملكة روما في شمال أفريقيا أنشأت في سنة 202 ق.م في عصر مملكة نوميديا في الشرق الجزائري على بعد 90 كلم من مدينة هيبون (عنابة حاليا). الاسم مستمد من كلمة طاغوست الأمازيغية التي تعني الحقيبة، نظرًا لموقع المدينة على سفح جبل محاط بثلاث قمم على شكل حقيبة تحتوي على المدينة.

2) لوكيوس: بطل رواية «الحمار الذهبي» رواية كوميدية للوكيوس أبوليوس الأمازيغي وفي النطق المحلي افولاي، تعتبر أول رواية في تاريخ الإنسانية وصلت كاملة. وهي عبارة عن 11 كتابا (فصل) يحكي بشكل أساسي قصة إنسان يهتم بالسحر، ويحب أن يتحول إلى طير، ولكنه يتحول إلى حمار.

الإلهة ،إيزيس، في إعادته إلى هيئته البشرية.

* * *

بصعوبة يشقّ المحامي نبيل بن عريف الطريق بسيارته «البيجو» متّجها إلى «حيّ مشرق الشمس».

رغم شعوره بالإرهاق، لم يمر بالبيت لكي يرتاح ويستحم ويغيّر ثيابه. كانت به رغبة في رؤية حنان قبل أيّ شيء. شوق حارق نازعه إليها حالما بدت له من بعيد جبال المشروحة، حيث كان أبو القاسم الشابيّ يرعى قطعان الشِّعر.

رغبة لم ينجح في كبحها ولا تأجيلها.

من غير حنان يستطيع امتصاص تعبه واحتواء حزنه؟

سيكون عندها بعد دقائق ليحتضنها ويعتذر لها عن الغياب. ستقبّل باطن يده ثم تمرّرها فوق خدّها الشّهي وتقول (لا عليك، المهم أنك بخير وأنا لا أتعب من متعة انتظارك). .سوف تجهّز له الحمّام وتدلّكه بيديها الناعمتين ثم تعدّ له القهوة وتضع في الفنجان حبّات من الهال. وتشرح له فوائده، كما تعوّدت أن تفعل، بينما يكون نبيل مشغولا بالتفكير في فوائد شفتيها.

كان بحاجة إليها، في ذلك الوقت بالذات. شوقه متوقّد كشعلة.

حنان: الفرح الهارب من حياته في باكر العمر،منذ طفولته، منذ قال له صبيّ في الحيّ/ زكية ليست أمك/.

لم يتصل بالسكرتيرة ولا بصديقه وأمين سره توفيق الربيعي. يثق به ويعتمد عليه كثيرا، حتى إنه يفكّر في التعامل معه مستقبلا. فكرة شراكة ما، كفتح مكتب للمحاماة، أوسع، في مكان آخر من المدينة. توفيق شاب مجتهد وله كاريزما فائقة وقدرة خارقة على دخول القلوب، يميل إليه الناس بسرعة، مهووسٌ بالأناقة، مولعٌ بالتفاصيل، مميّز بشعره الأسود المفلفل وعينيه الصغيرتين الضاحكتين وأنفه الأفطس وأسنانه الناصعة البياض. بعد وقت قصير من قدومه للمكتب للعمل كمحام متربّص توطّدت بينه وبين نبيل عُرى الصداقة رغم اختلاف شخصيتيهما. يتمتّع توفيق، إلى جانب مواهب أخرى، بحس فكاهيّ عال. ذاكرته قوية ويحفظ الكثير من النكت. أحيانا يبدو كأنّما يخترعها أو يصنعها من خياله. نكاته مميّزة ولا تنسى، خاصة ما تعلّق بميزات وأمزجة الشعوب العربية. .آخر نكتة لم يستطع نبيل نسيانها وكلما توقّف عند بائع الفاكهة كي يشتري التفاح يتذكرها ويبتسم في سرّه (تعرف يا صديقي.. في الميتولوجيا اليونانية رَمْي الحبيب بتفاحة دليل على الحب، قرأها جزائري، رمى حبيبته بسلّتين مملوءتين بالتفاح.. فماتت).

* * *

طاغست أخيرا...

الماء والخضرة وامرأة يستظلّ الحب بقلبها كلّما أرهقته دروب العشاق.

لكن حنان لا ترد على الهاتف.

شعر نبيل بانقباض قلبه. سيطر عليه التوتّر، تملّكه إحساس غامض بأن أمرا ليس على ما يرام. لو أنّها ردّت كانت ستقول «أين أنت حبيبي؟ لم تتصل منذ مدة؟ هل أنت بخير؟» ثم تضحك، ضحكة تفعل في جسده فعل المطر في نهر راكد.

لم يتصل بها منذ وقت. ولا هي فعلت. التقيا لمرة واحدة في مكتبه، بعد رحلة الحب في مدينة سوسة التونسية، أواخر سبتمبر. كانت حنان تخشى أن تشغله عن عمله وقضاياه وحدث كثيرا أن انقطع عنها لكن دون أن ينساها.

امرأة مضيئة كاعتراف. هادئة ورقيقة. تعرف كيف تغفر لرجل مثل نبيل، مشغول على الدوام ورأسه مزدحمة بقضايا الناس. لها قدرة عجيبة على امتصاص هواجسه وتعديل مزاجه. تمنحنه الراحة ولا تثقل قلبه بالأسئلة. كم يشعر بالاستياء من الأنثى التي تلعب دور المحقّق! تطرح في الثانية عشرة أسئلة وتريد، في الثانية نفسها، جوابا واحدا!

حنان ليست من ذلك النوع. إنّها قنوعة وصبورة. يحسّ نبيل في

حضنها بفيض من الأمان والحنان.

لأول مرة يعثر على امرأة لها من اسمها كل النصيب. (أحبكَ كما تكون. لا أريد منك شيئا. متعتي وسعادتي في رؤيتك سعيدا. حين تضيق بك السبل، أو تتعب ستجدني دائما هنا لترتاح في حضني).

هكذا حدّثته في الهاتف، بعد مدة من بدء علاقتهما.

و هكذا تردّد صدى حديثها في قلبه وهو يدخل سوق أهراس بعد أسبوع قضاه في غليزان.

كان يقود بعصبية ويدخّن بشراهة. يخزه إحساس غامض بأنّ شيئا ليس على ما يرام.

قلقٌ غريب يلقي بسواده أمامه.

* * *

تقع شقة حنان في الطابق الثالث بالعمارة (ج) وسط سلسلة عمارات في الجهة الشرقية من المدينة. حي تشرق خلفه الشمس تماما، ما أكسبه التسمية. يوجد بالعمارة مكتب توثيق وعيادة طبيب أسنان. هناك دائما حركة في المكان. أشخاص داخلون أو خارجون من البوابة لذلك لم يكن نبيل يثير الشكوك ولا أحد يرتاب به حين يصعد إلي الشقة.

توقّف أسفل العمارة كي يشتري السجائر من «كشك وردة الجزائرية».

كان محمود، صاحب الكشك، يثرثر، كعادته، مع بعض الموجودين برفقته ، وسمعه نبيل يقول:
سوق أهراس أنجبت للتاريخ شخصيتين عظيمتين: وردة الجزائرية وأنا!

البعض اكتفى بالضحك، والتفت أحدهم إلى الحضور كأنما ليشهدهم على جنون الرجل وقال باستهزاء:

- الكل يعلم أن السيدة وردة كبيرة أما أنت؟.. أنت!؟

- هي مطربة كبيرة وأنا عاشق كبير.

قال ذلك وناول نبيل علبة السجائر، وكان على شفتيه ابتسامة صفراء متردّدة لم تنجح في ستر انفعاله. لم يلاحظ نبيل ارتعاش يد محمود ولا ما بدا عليه من ارتباك، حتى إنّه ظل واقفا يداه خلف ظهره، مذهولا، يحدّق في المحامي.

من الكشك كانت وردة تصدح (جيت في وقتك يا حبيبي).

شعر نبيل كأنّ فورة من حنين تغرقه، أسرع خطاه لكن ما كاد يرتقي سلالم العمارة حتى سمع محمود يناديه بصوت مبحوح وأنفاس لاهثة:

يا أستاذ! يا أستاذ! السيدة حنان لم تعد هنا!

- كيف لم تعد هنا؟ هل انتقلت من الحيّ؟

تسارع نبض قلبه وانساب عرق بارد بين كتفيه.

كيف لم تخبرني؟ هل حصلت لها مشكلة من جديد مع أخيها؟ أم مع طليقها؟ ما الذي حدث في غيابي؟

و سمع نفسه يعيد السؤال.

- هل انتقلت من الحيّ؟

- لا. لقد قتلت.

وأضاف محمود وهو يزم شفتيه المجعدتين ويحرك رأسه بأسى بالغ:

- و.. وجدوها مط...مطعونة ف...في شقتها!

كانت في كلماته المتقطعة، كل معاني الأسف والخوف.

تسمرت نظرة نبيل. تخشب جسده. لم يقو على الحراك. يد حديدية تحكم قبضتها على قلبه. صخرة تهوي من السماء على كتفيه.

إنّه يسقط من حلمٍ شاهق.

ماتت حنان؟!

قتلت؟هل يعقل؟ أترك الموت خلفي لأجده أمامي؟ ومن أين ستشرق الشمس بعد الآن؟ لماذا لم يتصل بي توفيق ويخبرني؟ آه..

يا الله..لا..لا ليس حنان كلا. ااااه يا الله ما كان ينبغي أن اغفل عنها كل هذه المدة!

قتلت؟!

يتردد السؤال في ذاته الحزينة وقد تبعثرت معالمها.

بصعوبة استطاع أن يتحرّك وراح يذرع تلك المساحة الضيقة جيئة وذهابا، ينفث دخان سيجارته في كل مكان. ثم يرمي نصف السيجارة على الأرض بعصبية ويندفع للخارج.

يركب سيارته وينطلق بسرعة جنونية.

* * *

في مثل ذلك الوقت منذ أسبوع، اتصل نبيل بسي الهاشمي /أحيانا يناديه خالي / لكي يسأل عن زوجة أبيه زكية فأخبره إنّها مريضة جدا. قرر نبيل ترك كل أعماله والسفر لرؤيتها. وقطع الطريق من سوق أهراس إلى غليزان دون توقف سوى لشرب قهوة أو لملء خزان السيارة بالوقود. كان يدعو الله أن يجدها بخير. لكنها لم تكن بخير. كانت تعيش سويعات موتها. لم تتّعرف إليه ولم تحدّثه. فقط فتحت عينيها وحدّقت به ثم دخلت في غيبوبة. وظل نبيل جالسا عند قدميها، يرقبها بحزن، في لحظاتها الأخيرة.

لم يستطع كبح دموعه. كانت في قلبه غصّة لرؤيتها ضعيفة، هزيلة، وتقف بين عالمين.

بالطبع الموت يخيفه لكن تخيفه أكثر، بل ترعبه تلك المرحلة الحرجة، الدقيقة، الغامضة، بين الحياة وبين الموت. زمن لا أحد يدري كيف يمكن قياسه. حين لا تكون هنا ولا هناك. لست حيّا ولا ميتا. أكثر ما يمقته نبيل في الموت هو أن يطيل زمن حضوره كأنّه يتلذّذ. يتمطّى مثل ضيف ثقيل لا يدرك أنّه غير مرغوب فيه، وأنّ الكل يريدونه أن يحمل حقيبته المعبّأة بالألم والتساؤلات ويغادر.

بعد وفاة والده بأشهر، أخبرته زكية برغبتها في الذهاب إلى غليزان، لتعيش باقي عمرها عند أخيها الهاشمي. كان قد تقدّم بها السن، وأرهقها المرض، وبدأت ذاكرتها تترهل. لم يستطع نبيل منعها. احترم رغبتها.

يقال إنّ الأفيال تحب أن تموت في المكان الذي بدأت فيه حياتها.

ودّ نبيل لو أنّها بقيت معه لكنه لم يجد في نفسه الجرأة ليطلب منها ذلك. لم يعد ثمة ما يدعوها للبقاء. لو كان متزوجا، لو كان له أولاد، ربما عاشت معه، مع زوجته وأطفاله ولكنه مصرّ على رفض فكرة الزواج.

استقرّت زوجة أبيه في غليزان واستقرّ نبيل في وحدته.

كان وحيدا تماما، بلا أهل. لا إخوة ولا أخوات، لا أعمام ولا أخوال،

ولا أبناء عمومة. بعض الأقارب لأبيه، لا يشاركونه سوى اللقب، يلتقي بهم نادرا، منهم من يلجأ إليه إذا واجه مسألة قانونية.

كان وحيدا تماما. مقطوعا من شجرة، كأنه نبتة طفيلية ظهرت بين الصخور. كأنّه سقط سهوا من الفضاء أو خرج فجأة من البحر.

أنا لا أقارب لي سوى العدل. إن العدالة هي عائلتي. كان يقول.

ماتت زكية مع الفجر. بكى نبيل على كتف خاله بحرقة.

وفي المقبرة، ساعة الدفن، تذكّر أمه وحكاية وفاتها الغريبة وقبرها الذي جرفه السيل.

لو لم يكن للقدر ألاعيبه لأوليتَ الرسائل في بريدك الالكتروني أهمية. كنت على الأقل رأيتها أو حضرت جنازتها وربما سمعت من شفتيها لغز غيابها في حياتك وحياة أخيك زكريا، لكن...

قبل أن يغادر غليزان، التقى نبيل بسهام الممرضة ليودّعها. كان يشعر بالشفقة نحوها. فكر أنّه لن يخسر شيئا لو طيّب خاطرها بكلمة رقيقة.

آخر شيء تصوّره هو أن تتعلّق به، في ظرف أيام، لدرجة أن تطلب منه أن يتزوجها حتى دون مهر أو شروط.

ممرضة جميلة، في أواخر العشرينيات من العمر. كانت تأتي يوميا للاهتمام بزكية لأنّ سي الهاشمي أرمل وأبناؤه الثلاثة مشغولون

بأعمالهم ولا يمكنهم الاعتناء بعمّتهم فكان لابد من الاستعانة بممرضة. كانت سهام تحضر في الصباح ولا تغادر إلاّ قبيل المغرب. في اليوم الثاني لوصول نبيل، تأخّرت وكان الظلام قد حلّ، فاقترح أن يوصلها بسيارته. في الطريق، تحدثا في أمور عامة. وجدها خفيفة الظل، حلوة الحديث وجميلة جدا. معتدلة القامة، مستديرة الوجه، حاجباها عريضان وعيناها صغيرتان بنّيتان بأهداب طويلة معقوفة. تضع دائما خمارا أسود سامحة لخصلة من شعرها الأشقر بالظهور فوق جبينها. فلا يدري الناظر إليها أهي محجبة أم سافرة.

في المرة الثانية، لما أقلّها نبيل إلى البيت، رفعت الكلفة في الحديث وفتحت قلبها دفعة واحدة وروت له قصتها. كأنّها كانت تنتظر أن تلتقي به لتفرغ في جعبته أسرار حياتها. قالت له إنّها جاءت للعمل في غليزان منذ أشهر بعد أن توفى والداها معا في نفس اليوم في حادث سيارة وأنها تعيش عند أختها الكبرى المتزوجة. وروت له كيف تعرّضت للاغتصاب في سن الثالثة عشرة من طرف بن عمها الأربعيني الذي يقبع الآن في السجن بسبب المخدرات وكيف أنها لم تخبر أحدا بذلك أبدا خوفا من الفضيحة. ثم فجأة، توقّفت عن الكلام واندفعت بكل جسدها إلى حضنه، تبكي.

ماذا تفعل لو كنت مكاني؟ لست نذلا ولا متحجّر القلب كي لا أحتضن امرأة تبكي. أمسح دموعها وأواسيها!

لكنها حملت حركته على غير معناها وربما توهّمت أمورا لأنها، في

صبيحة اليوم الذي سيغادر غليزان طلبت منه بمنتهى الصراحة أن يتزوجها، وقالت إنّها ستترك العمل وتعيش معه في سوق أهراس.

لا يتذكّر من قال «عندما تلجأ إليك امرأة، مت من أجلها فالمرأة لا تلجأ إلى رجل إلا وكان عندها أعظم الرجال».

كلام جميل! لكن لحد الموت.. لا! المبالغة أمر رهيب! نبيل طيب ومشحون بالحبّ لكن لا يستطيع تبنّي أحزان كل الحزينات ولا الزواج بكل البائسات المحرومات!

و مع ذلك لا ينفي أنّ أيّ رجل يجيد الاستماع إلى امرأة هو رجل عظيم!

استلطف نبيل الفتاة لكن الزواج؟ غير ممكن!

أولا..

لأنه يؤمن بأنّه جاء إلى الدنيا لكي يحب لا لكي يتزوّج.

وثانيا..

ماذا يفعل لو أنّه، بعد فترة من زواجه، ينجرف ويقع في عشق امرأة أخرى؟ لطالما اعتقد بأنّ تشتين ألتان، الشاعر والصحفي التركي كان يقصده بقوله «إذا لم تنجرف وراء عواطفك ثلاث مرات في الشهر على الأقل، وإذا لم تلمس بطيف يديك قضبان زنزانة أو كتفين عاريين للمرأة التي تحب أيها الأحمق! لماذا أتيت، إذا، إلى

هذه الدنيا؟»

وكثيرا تكرّر انجرافه مع حرص هستيريّ على أن يقف دائما في الجهة الخارجية من القضبان الذهبية!

إذا.. لن تكون بينه وبين سهام قصة ممتدة في الزمن. سحابة حب ومرّت. إنّه لا يشعر نحوها بشيء. فقط اللامبالاة. ذلك الشعور الوسط بين الحب واللاّحب.

وبطبيعة الحال، الحب حين لا ينمو يتضاءل.

الحقيقة أنّ نبيل لم يواجه يوما مشكلة في قلب الصفحات ونسيان العلاقات. كل امرأة تعبر حياته تمسح بكل يسر تاريخ من كانت قبلها! وكل حب يصطدم به يحمل في داخله معجزة التفوّق على سابقيه!

(موهبة ربّانية) قال له توفيق ذات مرة (مثل موهبتك في المرافعة أمام القضاة!)

المشكلة أنّ سهام أرادت في فترة قصيرة جدا أن تسحبه داخل القفص، وتمنح العلاقة شكلا واسما ولم يدر بخلدها أنّ نبيل يكره العلاقات المحدّدة. إنّها تخيفه. تخنقه. تشعره بالضيق وتجعله يفرّ بعيدا كوعل استشعر وجود فخ. يكره المرأة التي تعتقد أنها من الذكاء بحيث تستطيع بسرعة تطويقه وتطويعه كي يمنحها اسمه وبيته وقلبه.

«وهل تكفي أيام معدودات لمنح علاقة بطاقة هوية أو تأشيرة استمرار؟ لابد من وقت كثير ومن حب أكثر. لابد من التوافق والانسجام في الأفكار وفي الأحلام وفي التطلّعات وفي الإيمان وفي الرغبة وفي العقل وفي الجنون.»

ذلك كان إيمان نبيل.

حين التقى بها لآخر مرة قبل أن يغادر، حاول أن يكون لطيفا وهو يقطع أمام عينيها حبل الأمل في اللقاء مرة أخرى. كان لابد أن يقول شيئا. قال لها أنت امرأة رائعة لكن لا أظن أننا سنتفق.. وقالت وهي تحاول أن تبدو غير مكترثة رغم الحزن الذي فضح نبرتها «طبعا لن نتّفق. .أنت نرجسيّ وأنا نرجسيّة.»

و قال لها، مداعبا: أنا أقحواني.

كانت تبدو غير مكترثة لكن حين سلّمت عليه مودّعة وداعا نهائيا لمح دموعا تتماوج في عينيها.

غلطتها أنها أرادت أن تستغل شفقته.

الشفقة ثغرة من ثغرات الحب. أمر لا يطيقه نبيل رغم أنّ قلبه مرفأ لسفن الحب وتعجبه كل النساء ويستطيع أن يحبهن جميعا، الشقراء والسمراء والطويلة والقصيرة والمحجبة والمتبرّجة. امرأة من قلب مدينة الأسود أو من هناك، من أعمق نقطة في الأرض لماّ يصلها زيف الحضارة. تلك المرأة العارية كالطبيعة، العارية تماما

كأمّنا حواء والتي لا تملك أدنى تصوّر عن شيء يدعى مشدّ الصدر أو أحمر الشفاه.

«آه. .يا قلبي الكبير الذي يستطيع أن يسع كل النساء».

* * *

هل كان يجب أن تقف عند كل تلك المرافئ قبل أن تجد في حضن حنان مرفأك الأخير؟ ماذا لو أنك تزوجت حنان وأنجبت منها طفلا أو اثنين، وكوّنت بها أسرة. أسرة حقيقية، رائعة ومتماسكة؟

الرجال يتكوّنون من خلال علاقاتهم بامرأة يرى ماركيز.

ماذا لو أنّ حنان هي تلك المرأة؟

لعلها الوحيدة التي كان يمكن أن يتكوّن بها من بين نساء كثيرات مررن في حياته. وقع في الحبّ كثيرا. لم يكن له في ذلك حيلة. يفاجئه الحب دون سابق إنذار.» لو أنّه ينذرنا يا صديقي، كان يقول لتوفيق، كنا نختفي خلف الجدران أو الأبواب أو في الأقبية العميقة أو تحت الطاولات أو في الأنفاق كما يحدث حين يدق الجرس منذرا بزلزال أو غارة جوية من عدو.»

ولم يكن نبيل يستوعب كيف يستطيع بعض بني جنسه أن يعيشوا بلا حب! كيف ينامون؟ كيف يستيقظون؟ بم يحلمون؟ بم يوشوشون للوسائد قبل النوم؟ كيف يبدو لهم القمر والشمس والبحر والمطر؟ بم تذكّرهم الموسيقى العالمية والقصائد الخالدة؟ إلى أين تحملهم

نقرات كعب عالٍ على إسفلت الشارع وهم مكدّسون في مقهى بائس، يدخّنون بشراهة؟

في بداية مهنته تعرّف إلى رجل يدعى جابر. التقى به في المحكمة. توطّدت بينهما علاقة صادقة رغم قصر عمرها. كان جابر يعيش مأساة وحربا شرسة لأنّ والده العجوز حرمه من الميراث بعد طلاقه من والدته وارتباطه بشابة لم تتجاوز العشرين. كانا يلتقيان في مقهى المدينة ويثرثران في شؤون البلاد قبل أن يقرّر الرجل ترك كل شيء والهجرة إلى كندا وكانا، حين تأتي سيرة الحب، يقول الرجل لنبيل بأسى شديد «خلق الرجال للحرب يا ماتر». احترم نبيل فكرته بينما في نفسه كان يتمنّى لو أنّ الرجال، بين حرب وحرب، يسامرون الحب، ويجالسونه حول دخان سيجارة وفنجان شوق.

إنّ أسعد الرجال من يذهب إلى الحرب فوق كتفه الأيسر سلاحه وفوق الأيمن وجه امرأة يعشقها وفي جيوب قلبه رسائل حبها.

مشكلة نبيل أنّه لم يستطع أن يتصوّر حنان زوجة له. خشي أن يطرد شيطان الزواج ملاك الحب من دائرة الدهشة والحلم.

أشفق على حنان / أو على نفسه؟ / أن يرتّب حبها فوق مكتبه كقضية تسقط بالتقادم.

كان يحلم بأن تظلّ القصة بينهما حدثا استثنائيا، مميّزا، مختلفا، وأن تظل حبيبته أنيقة ومدهشة ومنقوشة في خياله كالوشم وإلى

الأبد.

مجرد تبريرٌ كان يسوقه لنفسه. ربما لأنّه أناني. أو لأنّ فكرة الارتباط تصيبه بالرعب.

كأنّه كافكا الذي رفض الزواج مخافة «الذوبان في كائن آخر.»

ذات يوم، حدّثها في الأمر ربما ليجس نبضها:

- حنان، افهميني. لو تزوجنا ستخمد شعلة حبنا، لكن أعدك في حياة أخرى ستكونين لي وفي الجنة سأختارك أنت دونًا عن كل الحور.

قالت وقد غلّفت وجهها الجميل مسحة خوف:

- وما أدراك أننا سندخل الجنة ونحن نرتكب المعاصي؟

احتضنها..ملأ رئتيه برائحة شعرها الأسود الناعم وقال:

- ولمَ لا؟ ألسنا نؤمن بالله ولا نشرك به أحدا؟

ثم همس في أذنها:

- حتى جهنم ستكون رائعة معك.. اقتربي.

* * *

كان نبيل في العاشرة عندما اتخذ قلبه سبيله في الحب.

ومنذئذ وهما مترافقان. لو فكّر أن يعدّ المرات التي وقع فيها في الحب فلن يحصيها. وعند كلّ مفترق حب، يرفع يده اليسرى مودّعا، ويمدّ اليمنى مصافحا فتحا جديدا ينسيه الذي خبا. تكمن قوّة قلبه في فوضاه، حياته في جنون دقّاته واعوجاج مساره وتذبذب خطّ سيره.

سأموت على أيّة حال لحظة يستقيم «رسمُ قلبي» على شاشة صماء.

كان يستسلم لكل علاقة حب تمام الاستسلام. يترك السهم يخترقه، يستنزفه، يفرغه منه، يذيبه، يعصره كإسفنجه. يقتله بل يشبعه موتا ثم كان يعود إلى الحياة، مثل مخلوق خرافيّ عجيب.يعود إلى نقطة البدء حزينا حدّ الفرح، متألما حدّ النشوة يترقّب عودة الزائر ويحنّ إليه وكأنّه في كل مرّة يعيد اكتشافه من جديد.

وكأنّه خلق من أجل الحب ومن أجل فكّ أحجيته. لطالما ردّد اودري لورد بكل إيمان:

«في كل مرة تحب

أحب بعمق كما لو كان

سيدوم للأبد

اعلم فقط أن لا شيء أبدي».

لكن هل كل العلاقات التي عاشها نبيل كانت حبا؟

ألم يكن مدفوعا بسوط الشهوة؟

ألا تشعر الشهوة بالخجل أو الخوف فتستعير صورة الحب، فتتكلّم باسمه وتجلس في مقعده؟

وهل كان يرغب في حنان لأنه يحبها أم أحبها لأنّه اشتهاها؟

ذات مرة تطرّق إلى الموضوع حين سأله توفيق.

- ترى من كان أولا الحب أم الشهوة؟

قال نبيل ضاحكا:

- البيضة والدجاجة مرّة أخرى!

وقال توفيق مصرّا:

- لا. بصدق أريد أن أعرف رأيك.

قال نبيل:

- ربما في البدء كان الحب ثم «بدت لنا سوأتانا» فكانت الشهوة ثم تكاثرنا وغزت الغيرة الشهوة، فكان الحب. إنها دائرة مغلقة يا صديقي. دورة صراع أبدي. وأنت.. ماذا ترى يا عبقري؟

و قال توفيق وهو يعتدل في جلسته ويضع ساقا على أخرى ويرفع رأسه نحو السقف كمن سيدلي بشيء خطير:

– صراع؟ لا. ما تتحدث عنه جاء نتيجة عدم فهمنا لجوهر الاختلاف في العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة وعدم فهم نظرة كليهما للحب. كيف؟ سأقول لك. مثلا عندما تقول لي امرأة

«أحبك» فيم تكون تفكّر برأيك؟ طبعا في الورد والشكولاطة وعقد من الذهب وخاتم الماس وفستان فرح وعشاء على ضوء الشموع بمطعم يطلّ على البحر، وفي رضيع منتفخ الخدين ينام في المهد، ومنزل من طابقين ومطبخ مجهّز، وسرير غرفة نوم لكن...

و صمت توفيق برهة، وغمز نبيل بعينه ثم قال:

- لكن.. عندما أقول لامرأة «أحبك» فأنا أفكّر في سرير غرفة النوم!

وقال له نبيل ضاحكا:

- يا لأفكارك يا مجنون! أتعجّب من قدرتك على تعريتنا إلى هذا الحد!

وظلّ إيمان نبيل بالحب قويّا ليزداد رسوخا حين دخلت حنان حياته.

* * *

كيف دخلت حنان حياة نبيل؟

لنعد سنة كاملة إلى الوراء.

كان صباحا خريفيّا عاديا، لا ينذر بأيّ جديد عندما شوهدت امرأة جميلة تدخل مكتب المحامي نبيل بن عريف عملا بنصيحة صديقتها نوال.

كانت امرأة أنيقة بشكل لافت وتبدو في منتصف العشرينيات مع أنّها أكبر بكثير كما توضّح بعد ذلك. طويلة وممشوقة وممتلئة في غير بدانة. بشرتها صافية إلاّ من خال يتوسّط خدها الأيسر. الأنف صغير، الذقن مدبّبة، الشفاه مكتنزة والعينان واسعتان فيهما أكثر من لون. كانت جذّابة كمغناطيس. ملامحها ناعمة والمثير فيها عيناها، تحتار في وصف لونهما. خليط من الأزرق والبنيّ، وفي الشمس يقترب اللون إلى الأخضر. شفتاها مكتنزتان، ناطقتان بالرغبة، كأنّما تقدّمان للناظر فيهما دعوةً للتقبيل والشفة السفلى أكثر اكتنازا وكأنّها لأنانيتها استأثرت بالنصيب الأوفر من الكرز.

كانت تريد أن ترفع قضية على طليقها يونس بعد أن رفض أن يعيد لها مجوهراتها وثيابها، و أيضا أرادت أن تستشير بخصوص تبنّي طفل.

تلقّف نبيل يدها حين مدّتها لتسلّم، شعر بنعومتها ودفئها والغريب بدا له ملمسها أليفا وكأنّما تصافحا في زمان ومكان ما.

- حنان بورحيب، مستشارة نفسية بثانوية الفارابي.

صوتها هادئ جملته لثغة خفيفة في نطق حرف الراء.

حين أشار لها نبيل أن تجلس، نظرت في وجهه وابتسمت بخجل ساحر، فعبق المكتب بعطر خفيف وانتشر النور. تحدّثا بعفوية كأنّهما على سابق معرفة. لما أخبرته أنّها مطلقة، استنفر نبيل «الآخر» كقط بريّ. .نبيل الشهواني الذي تدغدغه أنامل المغامرة في حضور كل

أنثى جميلة. «يا لك من نزق! كم أتعبتني حتى إنّني في إحدى ثورات غضبي فكّرت أن أطلق عليك رصاصة وأرتاح ثم انتبهت أنيّ بذلك سوف أقتل نفسي!»

حصل انجذابٌ متبادلٌ بينهما منذ اللحظات الأولى. هي أنثى مُرِبكة، وهو رجل نفسه أمارةٌ بالحب، وظهرت في قلبه، من فرط مغامراته، قرون استشعار العشق!

تحدّثا كصديقين حميمين.

قالت إنها ارتاحت له، وكاد يقول إنّه يودّ تقبيلها، وبينما كانت تحدّثه عن مشكلتها مع طليقها، كان شيطانه يصوّرها له في أحضانه، مستسلمة بنشوة لمداعبته.

في اللحظة التي تركت مكتبه، فكّر نبيل بأنها لن تكون عابرة. حتى بعد أن غادرت بوقت، ظلّ إحساسه بحضورها الأنثوي يحيط به كهالة من عطر.

في ثاني زيارة، تعمّد أن يودّعها عند الباب. ضغط على يدها برفق وقال بنبرة حقن فيها براعته في الإقناع «سنلتقي كثيرا وستكون بيننا أحاديث طويلة.» «من أين لك بهذا اليقين؟» سألته مبتسمة. «من عينيك»، همس محدقا في عينيها الواسعتين الساحرتين وكأنّه يحاول أن يطبع في ذاكرتهما نظرته.

أيّ شيء فيها أيقظ خلايا الحب النائمة في قلبه؟

لم يكن جمالها بالتأكيد. لقد صادف الأجمل منها. لا يدري ما هو بالضبط. ربما نظرتها أو ابتسامتها أو طريقتها في الجلوس أو حديثها الهادئ، أو أصابع يديها الطويلة النحيلة، أو جسدها المتناسق أو قدماها في الحذاء متوسط الكعب أو تلك اللثغة الخفيفة في نطقها حرف الراء.

بعض الحب يأتي سهلا كضحكة طفل. بسيطا وممتعا كلعبة أرجوحة. صادما لكن لذيذا كطعم أول سيجارة.

نبيل من الذين يؤمنون بأنّ الرجال يقعون في حب النساء كما يقعون في حب المدن. مكانٌ في المدينة يستحوذ على روحك ووجدانك. مكان حميمي ومثير. موغلٌ في الدفء. يلامس عمقك. يجعلك تحب المدينة كلها بل وتتغاضى عن الأماكن الأقلّ جمالا فيها. أحيانا يكفي تفصيلٌ صغير لكي تقع في العشق. لا يذكر أين قرأ أنّ رجلا وقع في حب امرأة من رائحة منديلها الذي عثر عليه في الشارع!

إنّه يحب حنان. لا يمكن أن ينكر ذلك ويحبها أكثر لأنها أكبر منه سنّا.

هل في ذلك عقدة ما؟

في يوم، تحايل عليها لكي يعرف رأيها في موضوع فارق السن بينهما. كانا في شقتها وسألها عن الرجال في حياتها فأجابته مبتسمة، وبنبرة امتزج فيها الجد بالمزاح:

- بدأت تغار؟ أصبح الأمر جديّا. ما رأيك لو نتزوّج؟

- سيسعدني أن تكوني زوجتي لكنه لا يمكن.

واستطرد موضّحا:

- لا. لا. لا تسيئي فهمي أرجوك. ليس لأنك مطلّقة بل لأنك تكبرينني سنا.

- إنني أحسب عمري بالأيام فقط وإذا حسبت عمرك بأيامها ولياليها ستجد أنك أكبر مني بكثير، وساعتها أنا سأرفضك.

ثم ضحكت وأمسكت بذقنه بين سبابتها والإبهام ونظرت في عينيه ثم قبّلته بحنان في عينيه وأنفه.

قال لنفسه بأنّ امرأة مثلها، لها القدرة على إدهاشه خارج لعبة الجسد، تستحق حبه فعلا.

ما هو الحب سوى اضطراب وجداني ثلاثي القطب؟. .قلب، عقل، جسد؟ وكان نبيل يريد امرأة تحتلّ هذه الأقطاب الثلاث. تملأ قلبه وتقنع عقله وترضي جسده.

حصحص الحب. هذه المرأة هي حنان. غنيمة سيكتفي بها من كلّ غزواته العاطفية.

* * *

منذ مراهقته، بل منذ طفولته، شعر نبيل بميل غريب للنساء الأكبر سنّا منه.

هل كان يبحث فيهنّ عن أمه؟ هل في ذلك عقدة ما؟

ليست لديه فكرة، ولكنه يدرك يقينا أنّ غياب الأم في حياة الرجل لابد أن يَسمه بعاهة مستدامة. شيء فيه يظلّ مفقودا ويظلّ يبحث عنه إلى الأبد. يبحث عن أم بديلة، يحاول العثور عليها في حب الوطن أو في إدمان السجائر أو في الهوس بكرة القدم أو في أحضان بائعات الهوى.

عندما كان تلميذا في المتوسطة، تعلّق بسمية، جارته الشابة الجميلة. كان منزلها لصيقا لمنزله، وفي كل مساء يهرع خارجا، يركن جسده إلى الجدار وينتظر عودتها من الثانوية فقط لكي يقول لها مساء الخير. مرة أرسله والده لشراء الخبز ولكنه نسي تماما وتأخر عن العودة إلى البيت لأنه كان ينتظر حبيبته وغضب منه والده وصفعه صفعة، ربما لم يكن يقصد بأن تكون قويّة لكنها كانت، وسقط نبيل أرضا وارتطمت رأسه بالحافة الإسمنتية التي تحوط شجرة العنب في فناء الدار، وشجّت جبينه. كانت فاتحة العقاب، عقاب الحب.

وفي يوم استجمع شجاعته واعترف للجارة الجميلة. قال لها إنه يحبها ويريد تقبيلها. لكنها شتمته وهدّدته بإخبار والده.

امرأة أخرى تعلّق بها في صغره.

نفيسة، إحدى قريبات زوجة أبيه. امرأة بدينة جدا وطويلة، كليلةٍ بلا حلم. فقمة بيضاء. بشرتها ناصعة البياض ووجهها مستدير كطبلة، يُخيّل إليك أنّك لو تشكّه بدبوس ينفجر. كانت تزورهم من حين إلى آخر، تساعد في أعمال البيت وتنقل لهم أخبار الحي.

كانت نفيسة مكتب استعلامات متنقّل. وكانت امرأة تضحك. دائما. لم تكن تبتسم إنما تضحك. بسبب ودون سبب. تضحك حين تتحدث، وحين تأكل. .تضحك حين تجلس أو تقف،تقهقه وتحكّ ذقنها المتدليّ كذقن ديك رومي. لم تكن ضحكتها مفتعلة. أبدا. كانت صادقة، نابعة من أعماقها ودليل سعادة وخلوّ بال.

يكفي أن يغمض نبيل عينيه ليرى وجهها الممتلئ، الشديد البياض وكيف يتحوّل تدريجيا من لون أبيض إلى ورديّ إلى أحمر حسب تسارع ضحكتها. عيناها تنغلقان. صدرها المكتنز يرقص. في الواقع، كانت كل كتلة من جسدها العملاق تشارك في وصلة الضحك. وحين تمشي يهتزّ ثدياها وبطنها وترى هضبتي مؤخّرتها المرتفعتين، تتناوبان في الهبوط والصعود في تناسق وانسجام عجيبين.

كل يوم جمعة، كانت تطلب من نبيل مرافقتها إلى الحمّام الشعبي.

أصبح يوم الجمعة مميّزا عنده، مقدّسا في عقيدته. ينتظره بفارغ صبر.

يرافق أباه وأخاه إلى الصلاة. جسده داخل المسجد ورأسه في

الخارج. معبأ بكنوز المغارة العجيبة.

كان يجلس في الصف الأول. يغالب الشعور بالدّوخة. الإمام يهدّد ويتوعّد، بلغة كثيرا ما كان نبيل يفشل في فكّ رموزها. أصدقاء والده يمسحون على شعره. يثنون على أخلاقه وتديّنه المبكّر، بينما هو يفكر في نفيسة ومؤخّرتها العجيبة، وزندها الثلجي الذي يظهر له من تحت كمّ فستانها الطويل حين تمدّ له يدها بقفة الحمّام وتقول (احمل هذه يا ولد!)

في يوم، بعد أن أوصلها عند باب الحمّام وقفل راجعا، فاجأته (ما رأيك لو تدخل معي أحمّمك؟) وقبل أن يجيب بالرفض أو بالقبول جذبته من ذراعه، وسحبته بقوة إلى الداخل.

هل يمكن أن تتصوّر دهشة علي بابا وهو يلج المغارة العجيبة؟

ما زال أنفه يحفظ تلك الرائحة المميّزة. النفاذة. مزيجٌ من رائحة الصابون والعطر والعرق. أصوات متداخلة مغلّفة بما يشبه الصدى. بخار متصاعد من الأجساد ومن غليان الماء ينتشر في فضاء الغرفة ثم يتحوّل إلى قطرات تتزحلق على جدرانٍ شاهقة الارتفاع، ذات رخام أبيض. كان في قمة الدهشة والإثارة، مثل قط أمام سمكة في حوض ماءٍ صغير. وحين ضاق نفَسه واشتد خفقان قلبه واعتقد أنّه سيغمى عليه، فكّر في الهرب لكن قبل أن يفعل، كانت نفيسة قد جرّدته من ملابسه/ شورت قصير وتريكو بلا أكمام فقد كان الوقت صيفا /

وأجلسته بين ساقيها العاجيين، المنتصبين كجبلين صغيرين وراحت تسكب الماء الساخن على كل جسده، ومن بين الضوضاء وصوت دلق الماء والقهقهات ورنين الأساور يتذكّر أنّه سمع إحداهن تصرخ.. (يا نفيسة. .ما كان يجب أن تدخلي هذا الولد معك.. إنّه كبير). (ما بالكنّ؟. . إنه طفل!) تجيبهن نفيسة ببرودة وبلطفها المعهود وهي تضحك، ودون أن تتوقّف عن دعك جلده بليفة، كأنّها كرة من سلك شائك مغمّسة في صابون عطري نفّاذ الرائحة. كان يحاول جاهدا فتح عينيه مستجيبا لصوت بداخله.. أيها الغبي افتح عينيك. تأمّل جيّدا، قد لا تتاح لك فرصة أخرى لمشاهدة هذا الاستعراض المجّاني للأجساد العارية.

كان نبيل في الثانية عشرة ويبدو أكبر بسنوات.أطول مما يجب بالنسبة لسنّه. بشرته الشاحبة جعلت زغبا خفيفا فوق شفته يشكّل ظلا أسود لشارب سوف ينمو بكثافة.. جسده متماسك قويّ وعضلاته مشدودة وبارزة. أكيد من فرط الركض خلف الكرة في أزقّة حيّه الملتوية المتربة أو من مغامرة السباحة في بركة خطيرة «بركة الجيدو» وكان يقصدها في أيام العطل مع إسماعيل، أقرب رفاق طفولته إلى نفسه، وكانا يتنافسان من يصمد أكثر تحت الماء، إلى أن كان يوم ووقع إسماعيل فوق صخرة ناتئة حادة تتوسط البركة وتفتّت رأسه. كانت تلك أول مقابلة لنبيل مع الموت.

لم تدخله نفيسة معها إلى الحمام بعد ذلك، وقالت له لقد

بدأت تكبر.

وفعلا، كان يكبر ويبدأ يفهم كيمياء الأجساد وسرّ اللعبة التي يمارسها رجل وامرأة وينجبا طفلا!

بكى نبيل نفيسة يوم ماتت ولم ينسها أبدا.

يتعلّق الرجل بامرأة أكبر منه لأنه يرى فيها صورة الأم المفقودة في حياته والتي يشعر معها بالأمان. هكذا قرأ في أحد كتب علم النفس لكنه ليس متأكّدا إن كان ذلك صحيحا. ثم علم النفس لا يهمّه ولا يقنعه. الذي هو على يقين منه أنّ حنان امرأة كاملة كآلهة. تشحنه بطاقة إيجابية كبيرة. يعود من كل لقاء بها مفرغا من كل همّ وسعيدا. نافخا غروره كطاووس.

أليس هذا كافيا لأن يُشعر أيّ رجل بالسعادة؟

* * *

كان نبيل قد جلب لحنان «اعترافات القديس أوغسطين».

عثر على الكتاب في مكتبة عتيقة متخصصة في المخطوطات والكتب القديمة بمدينة غليزان. تذكر رغبة حبيبته في التعرّف أكثر على الكاتب والفيلسوف. ابن سوق أهراس الذي كان يتخذ من

شجرة زيتونٍ في وسط المدينة مكانا للتعبّد والتأمّل وممارسة طقوسه الروحية. تروي الحكايات أنّ النسوة قديما كنّ يدفنّ «قلفة الختان» تحت الشجرة لكي يأتي أبناؤهن بذكائه وفكره وعظمته..

إلى اليوم، تنتصب الزيتونة المعمّرة في قلب هضبة وسط المدينة، غير بعيد عن ضريح الأب الروحي لسوق أهراس وشيخ الزاوية القادرية، سيدي مسعود بن بوكر وهو ضريح تظهر عليه آثار العمارة العثمانية. زيّن من الداخل بالخزف وفرش بأنواع الزرابي ويعتبر مزارا طاهرا يتوافد عليه الكثير من الناس توخيا للبركة كما يقام به احتفال يعرف بـ «الزيادة».

قال توفيق لنبيل ذات يوم وكانا مارّين بقرب المكان.

- انظر يا أستاذ. . لو علم الذين يفجّرون الكنائس والمساجد أنّ زيتونة القديس تجاور الضريح بهدوء ومحبة ما تجرّؤوا.

-صدقت، هذان معلمان يتحدّيان التعصّب.

وأضاف توفيق:

- والمسافة الفاصلة بينهما لا تتجاوز بضعة أمتار.

- صحيح. وكأنّهما شاهدان على إمكانية تعايش الأديان لحقب طويلة.

و قال توفيق رافعا رأسه نحو السماء، و بنبرة اختلط فيها

الجد بالهزل،كعادته في ختم أيّ موضوع:

- كلّ يصلي لربّه، والربّ واحد!

كان نبيل قد وعد حنان بأن يقتني لها جميع مؤلفات القديس لأنها تفضل قراءة الكتاب الورقي ولأنها حدثته عن حرج وقعت فيه يوم استقبلت الثانوية ضيوفا من مدينة قرطاج التونسية، في إطار تبادل تربوي وتاريخي بين مدينتين شكّلتا قدر القدّيس، ففي قرطاج أُكمل القديس دراسته وامتهن التعليم.

أخبرت حنان نبيل أنها ودّت لو كانت تملك معلومات أكثر عن القديس وعلاقته بالمكان وأثره فيه لكن (ولأن لا أحد بيننا كان مطّلعا فعلا على التاريخ اكتفينا بالنذر القليل من المعلومات وأخذ صورة تذكارية تحت الزيتونة الخالدة).

وعثر على «الاعترافات». نسخة واحدة. نادرة. تعود طبعتها إلى سنة 1991. مؤلف رائع لعله بمثابة البداية الحقيقية للكتابة الأوطبيوغرافية في الفكر الإنساني. يحتفظ به في المحفظة وحين يجد فسحة من الوقت أو يصيبه الأرق يقرأ فيه. يقرأ عن بن مدينته، المثقف والفيلسوف الثاقب الذهن، الغزير العلم الذي عشق طاغست عشقا خرافيا حتى إنّه يوم عاد إليها بعد خمس سنوات من الغربة في روما قال إنّه لن يغيّرها مقابل أيّ شيء في العالم.

سنتصفّح الكتاب معا يا حبيبتي. إليك ما سنفعل هذا المساء:

تجلسين بقربي متخفّفة من أيّ ثوب إلاّ القطعتين الحريريتين باللون الذي أحب. تعرفين ذلك اللون؟ تلتصقين بي. تضعين رأسك على كتفي ونباشر القراءة معا. بشرط.. عند كل نقطة أو فاصلة تمنحينني قبلة.

أعرف إنك ستوافقين.

يشعر نبيل بأنّه محظوظ أن تكون في حياته امرأة حرّة ومثيرة. امرأة قوية. ليس بالمفهوم الذي يعرفه العامة. ليست القوة المرادفة للجفاف أو الخشونة. إنما القوة العجيبة الساحرة التي تنبثق من النعومة ومن الليونة، التي ظاهرها الصلابة وباطنها الرقّة والعذوبة. القوة التي تنبثق من الثقة ومن الحب. الحب لوجه الحب. اللاّ مشروط بحيث يكتفي بذاته.

و ما يدهشه في حنان أنّها متصالحة مع وضعها تماما (لست الضحية ولا الجلاّد) كانت تقول له (لم أوفّق في الزواج..ليست مأساة ولا نهاية العالم. إنّني بخير.) قبلها لم يصادف أبدا مطلّقة لها ذات المنطق. اللواتي كن يقصدنه في قضايا نفقة أو إهمال كنّ يبدون بائسات، متذمرّات ومنهنّ من تنخرط في البكاء ربما لاستدرار شفقته أو لأنّ ذلك طبع فيها.

دائما يحتفظ بمناديل ورقية فوق مكتبه.

هزيمةُ الفرحِ المفتعل

«أردتك أن تعرف الشجاعة الحقيقة

عوَضَ أن تتصور أنها رجلٌ بيده بندقية.

الشجاعة الحقيقية هي أن تدرك أنك تمضي منهزما

ومع ذلك تعمل دون توقّف.»

هاربر لي

وجهان يبدو عليهما البِشر وعيونٌ تنهمر دهشةً وشيء يشبه السعادة يطل من الصورة.

فستان أبيض يكبّلُ النهدين، يخنقُ الخصر، ثم فضفافا، يسبح فوق البلاط. شفاهٌ تحاول القبض على ابتسامة، ويدٌ بضّة، بأصابع طويلة تزيّنها الحناء والخواتم الذهبية، تتشبّث بساعد قويّ.

حنان بورحيب ويونس العلواني.

امرأة تمارس الحلم ورجل يعاقر الواقع!

امرأة ليّنة كابتسامة رضيع ورجل صارم وخشن في مظهره وفي كلامه وفي عواطفه.

كيف سار بهما المركب لخمس سنوات؟ والأغرب كيف حدث التوافق، ولو لفترة، بين الجنون والعقل؟

خمس سنوات متشابهات فُصّلت على مقاسِ يومٍ واحد وشهدت تعايش جسدين دون أمل في لقاء الروحين، ولو من باب الخطأ أو الصدفة.

جدارٌ وصورةُ زفاف مثاليةٌ كأنها لوحة زيتية.

و تسقط الصورة ويسقط الإطار ويظلّ الحيّز مصفرّا مختلفا عن باقي لون الغرفة، ومسمارٌ صغير صدئ مغروسا في جدار الذاكرة.

* * *

كان طلاق حنان طوقَ نجاة وخلاصا من حياة زوجية باردة، خاوية، مفرغة من كل معنى. لا شيء سوى فرقعة الاختلاف وارتطام الصمت بالصمت.

الصمت لغة لا تحتاج إلى ترجمان.

كلما هممنا بالتحاور «تعطّلت بيننا لغة الكلام»

وهل تتعطّل اللغة بين رجل وامرأة إلاّ في حالتين، قمة الحب/ كي يُفسح المجال للغة أخرى / أو قمة الاختلاف؟

وكذلك كانا.. مختلفين جدا.

«يا لخرافة النصف الآخر! من الغبي الذي ابتدعها؟ من ألقى بهذه السخافة في أذن العالم؟ الشريك الذي يكمل شريكه. يا للبدعة! من يكمل من؟ لا أحد يكمل أحدًا. أبدًا. في الزواج لابد من حد أعلى من التوافق الفكري والنفسي والروحي والوجداني والمزاجي والجنوني والعقلاني.»

اكتشاف متأخر يا حنان لكن كان عليك المُضيّ في تلك الدرب.

نحن لا نختار الدرب. الدرب تختارنا.

أقنعها الجميع بالموافقة على «العرض» كي لا يتجاوزها القطار ويفوتها «السيرك». خيّل إليها الظفر بالسعادة. إذا كان الكلّ سعيدا بهذا الزواج فلم لا تكون أيضا؟ لابد أنّ الأمر رائعٌ بما أنّ الكلّ موافق ومبتهج! في الحقيقة كان صفقة أكثر منه زواجا. من الغبية وعلى أبواب العنوسة، ترفض يونس العلواني؟ رجل ميسور مسح ديون أبيها، ساعد في علاج أمها، تدبّر عملا لأخيها فريد كسائق لشاحنة توزيع بمصنع الحليب الذي يملكه شراكة مع أحد كبار رجال أعمال المدينة. بالنسبة لفريد كانت حنان هي العقبة الوحيدة في طريقه لكي يتزوّج ويقيم في الشقة مع والديه. سعاد، أختها الكبرى، تزوجت

قبل ذلك بسنوات واستقرت بباريس.

أثّث يونس بيت الزوجية وتكفّل بكل مصاريف الزفاف.

كانت الصورة الخارجية ملمّعة وبرّاقة، وحنان هادئة ومستسلمة كنمرٍ صغير يدرّبونه لكي يصبح قطا أليفا!

و بسرعة جنونية مضي بها القطار نحو تصحّر عاطفي وتلبّد فكري وبدأت تفقد في يوم يمر شيئا من الحيويّة، ومن بهجة الحياة. حتى مهنتها وكانت شغوفة بها بدأت تهملها.

« أتابع التلاميذ نفسيا وأنا الأحقّ بالمتابعة!»

و انتفضت يوم قابلتها في المرآة صورة غريبة عنها. الملامح نفسها، الأنف الصغير، الذقن المدبّبة، الشفاه المكتنزة والعينان الواسعتان الفيهما أكثر من لون، لكن التعبير مختلف والنظرة مطفأة.

كانت الأسئلة تحفر وجدانها...أهذه هي الحياة الزوجية؟ ألهذا يتزوّج الناس؟ لكي يبدأ مسلسل الانتظار؟ انتظار أن يأتي الحب، أن يأتي الأبناء، أن تأتي السعادة؟

وقد لا يأتي شيء في النهاية، ولكن على الصورة أن تظلّ محجوزة داخل الإطار وعلى الإطار أن يظل معلّقا على الجدار، وعلى الطرفين أن يتظاهرا بأنّ الريح الطيّبة تقود السفينة. بكل هدوء.

أدركت حنان بأنّ الزواج يستنزفها. يستنزف عقلها وجسدها

وروحها. إنّه يحوّلها، في كل يوم قليلا، إلى امرأة رخوة، طيّعة، مسلوبة الروح كفزّاعة وهاهي تفقد الطاقة على خداع نفسها وخداع من حولها. الطاقة على التظاهر بأنّ كل شيء على ما يرام وبأنّها سعيدة.

التظاهر بالسعادة هو التعاسة عينها.

و في يوم فاجأت الجميع بأنّها لا يمكن أن تستمر.

دوّت الصرخة وظُنّ أنّه مجرد كلام. محض قرار عابر كالذي نتلفّظ به في لحظة انفعال أو غضب.

ألا يحدث أن نتّخذ قراراتٍ تموت ساعة تولد؟

(لستِ جادة. .. أليس كذلك؟) تصرخ بها والدتها.

لطالما تهيأ لحنان بأنّ والدتها تحمل رواسب من نساء طاغست الرومانية، وأنّها امتداد لنساء ذلك الزمن البعيد. نساء تجعلهن وثيقة الزواج مستسلمات، مطيعات، مسلوبات الإرادة. زمن الإيمان بأنّ الأرملة لا يحق لها أن تتزوّج لأنها بذلك تقف ضد إرادة الله الذي قدّر لها الترمّل!

في الأمسية التي سبقت طقوس الثوب الأبيض، حدّثتها جارة منقّبة حديثَ كوني له، يكن لك.

سعاد قالت لها أنت حرة. افعلي ما تشائين.

و قال لها والدها بنبرة تهديد مهذّبة (هذا البيت لم يعد بيتك، ستدخلينه ضيفة ليوم أو ليومين.) أما نوال فحذّرتها (لا تنسي يا صديقتي. .يتزوّج الناس لكي يكونوا سعداء. وهذا سبب وجيه لأنهم يتزوّجون لأسباب كثيرة أخرى.. تافهة!)

نوال خلايفية هي الأقرب إلى قلب حنان. أستاذة تاريخ بالجامعة. وحيدة والديها. تعود علاقتها بحنان إلى أيام الثانوية. نوال قوية الشخصية، متحررة، متمرّدة، واثقة، وجريئة. تتمنى لو تقتنع بالزواج لكن بقعة في دماغها المشاغب ترفض الاعتراف به. امرأة صعبة المراس، حرون كماعز الجبل. رفضت الكثير من الخطّاب. لا تهضم فكرة أن يحكمها أحد. كل رجل لديه الرغبة بالتحكم وهو أمر فطري في الذكر.. تقول دائما. .كل زوج، سواء بوعي أو بلاوعي، يرى نفسه الرجل البدائي الأول. يخرج للصيد ويجلب معه الطعام ويقف لساعاتٍ في مدخل الكهف يحرسه من الحيوانات المفترسة وحين يرغب في رفيقته، يجرّها من شعرها إلى مخدعه. تحمل نوال أمنيةَ أن تكون هناك طريقةٌ ما، أيةُ طريقة، يُحشر فيها، داخل كهف الزواج، المزاجيات مع المزاجيّين والمجنونات مع المجانين والعاقلات مع العقلاء والثرثارات مع الثرثارين... تعتقد أنّ الأمر سيكون رائعًا ومذهلاً وملهمًا لو أنّ المرء يولد بوشم أو وحمة أو علامة ما، في أي مكان من الجسد، ثم يبحث عن نصفه الذي يحمل نفس العلامة أو الوشم أو الوحمة. هكذا يكون لفكرة «النصف» قيمة، في الواقع، كثيرا ما كانت نوال تصدم الجميع بآرائها المثيرة للاستغراب. مشكلة الزواج في نظر

ها أنّه يتلازم، وبصفة قاتلة، مع فكرة الملكية والأبد. كان أفضل لو أنّ له مدّة صلاحية مثل الدواء أو مثل أيّ منتج استهلاكي، مدة قابلة للتجديد مثلا حسب الربح والخسارة لأيّ طرف، مثلما في أيّة شراكة.

برأيها، لم يعرف الكون زوجين مرتاحين ومحظوظين مثل آدم وحواء، لأنه لم يكن بين أيديهما أيّ خيار!

لكن حنان ترى بأنّ الناس يتزوّجون لكي يكونوا سعداء ويلجئون إلى الطلاق لكي يعثروا على السعادة من جديد وعلى الأمان، وأنّ الزواج حرب. .باردة حينا، مشتعلة أحيانا. فيها المهزوم وفيها المنتصر، وقد تتناوب الأدوار بين الانتصار والهزيمة لكن الطلاق هو السّلام.

ليست نهاية العالم بأيّة حال. تفكر حنان، وكأنّها تضع بقلمٍ أحمر عبارةً ختامية لمقال طويل.

ليست نهاية العالم. ذلك ما تحب الإيمان به، لكن في مجتمع مريض، هي الآن مشبوهة وخطيرة وناقصة، وفاشلة ومسكينة وسيئّة الحظ ومدعاة للرثاء وعرضة لقلوب ضالّة، وغرائز متشرّدة تمسح الشوارع بحثا عن جسدٍ سائغ.

/ الزواج ستر / وحنان أصبحت في العراء!

* * *

كان لخبر الانفصال وقع سيّء.

طلاق غير مبرر وغير مقنع. مقنع لمن؟ للناس طبعا. إحدى خالات حنان كانت تقول «الرجل لا يعيبه سوى جيبه» وجيب يونس ممتلئ حتى ليكاد يتمزّق. .ما المشكلة إذن؟ ألا يردّد الشارع، بمنتهى اليقين / الهجالة من ربي، والمطلقة من فعالها/؟ من أفعالها!؟ حنان لا ترى بأنها فعلت شيئا سيئا أبدا.

طلاق غير مبرر وغير مقنع؟!

أكيد. لأنّ السبب الذي يحتل كامل واجهة الطلاق غالبا ليس هو السبب الحقيقي. القاضي نفسه الذي ينطق بحكم الانفصال يكون جاهلا بالسبب الحقيقي.

ترغبون في معرفة حقيقة أيّة حالة انفصال؟ ابحثوا في الكواليس.

ابحثوا تحت الوسائد أو تحت شراشف السرير!

ليست الحقيقة هي ما نراه على الركح. الحقيقة في الكواليس.

الوحيدة التي لم تكترث هي سعاد. اتصلت بحنان أكثر من مرة. (حياتك ملكك. افعلي بها ما تشائين). سنوات إقامة سعاد بباريس حوّلتها إلى امرأة متحرّرة، متشبّعة بالثقافة الفرنسية وأسلوب العيش الفرنسي. تزوّجت في سن مبكرة من ابن أحد المغتربين الميسورين واستقرت في باريس. في سنوات زواجها الأولى، كانت تأتي إلى سوق أهراس في كل موسم صيف ثم مع الوقت لم تعد مثابرة على ذلك، مكتفية بالتواصل معهم بالهاتف.

عدا نوال وسعاد، وقف الجميع ضدّ حنان بل ترجّوها أن تعيد التفكير، وأن تتخلّى عن إصرارها.

لم يفهموا بأنّها لم تكن بحاجة لمجرّد رفيق يؤنّث المكان ككرسي عتيق، يؤنس بشخيره وحدتها في ليالي الشتاء. يجلس قبالتها للأكل صامتا كجدار،أو يتابع بانتظام ممل نشرات الأخبار في التلفزيون دون أن يبدي رأيا. حاضرا غائبا كمومياء. لو كان كذلك لفكّرت في تربية قطٍ أو جروٍ صغير.

أيّ حيوان أليف يستطيع أن يقوم بمهمة الرفقة على أكمل وجه!

لا أحد استطاع أن يفهمها. لا أحد حاول أن يدرك حقيقة شعورها.. ما عدا نوال.

كانت حنان متيقّنة بأنّ الانفصال سيجعلها أكثر راحة..سينقذها من «ماذا طبخت اليوم؟»، «لا أجد جواربي»، «هل اتصلت بوالدتي؟»، «الجو بارد»، «الجو حار». والأهم.. الأهم.. سينقذها من علاقة حميمة تنتهي دائما / كما تبدأ / بصمت يونس المثير للجنون، وبهرولة حنان إلى الدّش، عارية، تغتسل بالماء وبالدموع.

تمرين شبه رياضيّ. لعبة سخيفة مارساها لمدة خمس سنوات. طبعا حدث أن شعرت حنان بالمتعة، لكن، كما أخبرت بذلك نوال فقط حين تستحضر رجلا آخر. .تشكّل من خيالات طفولتها وهلاوس صباها. .رجل فارع القامة، وسيم، أنيق، يحب ارتداء البدلات

وربطات العنق ويرشّ ذقنه بالعطر. .رجل يوافق جنونها وتعشق طريقة حديثه وأسلوب تفكيره وحركات يديه ونظرة عينيه ونبرة صوته وعشب صدره.

رجل يملك شفرة قلبها، يفتح مغاليق دماغها بمنتهى اليسر فتمنحه نفسها بمنتهى الرضا.

كل شيء يبدأ في الدماغ.

الجنس أيضا يبدأ في الدماغ. يبدأ في الأعلى وينتهي في الأسفل! ولأنّ الأعلى يصعب الوصول إليه في غياب الحب والانسجام الروحي والفكري والجسدي، كانت حياتهما لخمس سنوات أرضا خصبة لتكاثر التنافر وتربة مهيّأة لكل بذرة شِجار.

(لا يمكننا أن نولي الشّجارات الصغيرة أهمية. إنّها موجودة في كل زواج) تقول والدتها بمنتهى الثقة.

أمي. ..الثلج الخفيف ثقيلٌ على عنق الزهرة.

أمي. .الشج /ا/ي /رات الصغيرة تكبر. مع الوقت تصبح غابة، وتحجب الفرح.

(لابد أن تستمري... الحب يأتي مع العشرة والزمن يصلح كل شيء)

و تحتار حنان كيف تستمر مع رجل تفصلها عنه سنوات ضوئية.

آه يا أمي، هل لديك فكرة عن العشق؟ هل حدث وأن حلمت برجل مغلّف بالأسرار، كلما تفكّين في قميص روحه زرّا ينكشف لك سرّ وتتملّكك اللهفة لفكّ المزيد من الأزرار. رجل يمسك بيدك بكل حب ويسير معك داخل كهوف نفسك فتكتشفين فيك منابع النور والأمل.

الزمن يصلح كل شيء؟!

يا للخرافة الأخرى! كذبة كبيرة تعشّش في دماغك!

من أين أتى هذا الإيمان السخيف يا أمي؟ الزمن لا يصلح شيئا.

لو كان يستطيع لأُصلح ذاته! حتى إنّه لا يلتفت إليك لو تعثّرتِ ووقعتِ، لا يبالي بك. يمضي نحو غايته لا يلوي على شيء.

و هل تدرين ما غايته يا أمي المسكينة؟ أن ينهينا جميعا. .تلك هي غايته.

(حاولا أن تنجبا. حاولا أكثر. الطفل يلطّف الأمور في الزواج.)

آه. . أمي. . أمي. .أيعقل هذا؟ هل تعنين ما تقولين؟ هل تدركين فظاعة ما تفكرين به؟

هل عليّ أن أنتظر هبوط كائن من عالم الغيب لكي يصحّح علاقتي بيونس؟

تعاقبت السنوات ولم يأت الحب ولم يأت الطفل. حصل إجهاض لمرّتين وكأنّ رحم حنان رفض احتواء روح من روح لا تشبهها.

كل إجهاض هو حالة رفض.

لم تكن حنان تجد معنى لأن تنجب من رجل لم تشعر يوما بحبه، لأن تحمل في رحمها بذرة رجل لم يخفق قلبها لرؤية عينيه أو لسماع صوته. لم تهزّها الرغبة في البكاء كطفلة لمجرّد التفكير بأنها ستفقده. لا يجمعها به تاريخ حب. لا ذكريات، ولا صور، ولا رسائل، ولا مواعد لقاء، لا قبلات ولا دموع ولا هستيريا ضحك.

رجل لم تحترق بسببه في جحيم الغياب ولا دخلت فردوس الحضور.

رجل غريب تكتشفه في ليلة مضاءة بمصابيح فرح مفتعل.

و كانت تشعر بالشفقة على يونس أيضا وتفكّر بأنّ الطلاق فرصة له، لكي يغيّر حياته ويعثر على امرأة أخرى. امرأة تستطيع أن تحبه برغم عيوبه بل ربما بسببها.

لم يغفر يونس لحنان طلب الطلاق وإصرارها عليه. اعتبره سبّة. إهانة لرجولته وطعنة في قلب فحولته، وفي ثورة كبرياء رفض منحها مجوهراتها وملابسها وأخرجها من البيت بالثياب التي كانت عليها.

تنظر حنان في المرآة. تبتسم بثقة «الناس يطلّقون لكي يعودوا سعداء. الطلاق ضرورة حين يحسّ كلّ طرف أنّه بحال أفضل بعيدا

عن الطرف الآخر. وما الذي يجعل أيّ طرف يحسّ كذلك؟ إنّه غياب الحب.

الزواج عن غير حب انتحار غبيّ.

تمامًا كأن تغطس في البحر وأنت لا تجيد السباحة».

تشذّب حاجبيها بأناملها. تمسح الهالات تحت عينيها وكأنّما لتمحو أي أثر لكل ذكرى حزينة.

إنّها الآن أفضل.

* * *

تغيّر اسمها..
من حنان بورحيب إلى حنان المطلقة.
و«حين يتغيّر الاسم يتغيّر القدر».

توفي والد ها. دهسته سيارة وهو راجع من السوق، ارتطمت رأسه بالرصيف وبعد أسابيع من الغيبوبة فارق الحياة. بعد أشهر تزوّج فريد وبدأت الصدامات، وبدأت حنان تشعر بثقل وجودها في البيت، ورأت ضرورة الانتقال والعيش لمفردها في منزل وظيفي حصلت عليه من مديرية التربية. لم يكن صعبا إقناع والدتها. كانت المشكلة في فريد. لم يعارض الأمر فحسب بل طلب أن تمنحه الشقة ليستقر

فيها مع زوجته بينما تعيش هي مع الوالدة واعدا أيّها بالمواظبة على زيارتهما يوميا.

رفضت حنان رفضا قاطعا وثارت ثائرة فريد.

كانت أمسية مشحونة بالصراخ والغضب والبكاء. هدّد فريد بقتل نفسه وبقتلها. «يوما ما سأقتلك يا فاجرة!» ملأ البيت صياحا وشتما. ضرب بقبضته نافذة الغرفة فتناثر الزجاج في كل مكان وهرعت الجارات، وأغمي على الأم ونقلت إلى المستشفى.

و في الصباح عاد الهدوء إلى البيت ولم يعد إلى قلب حنان. أصرت على موقفها وانتقلت في اليوم الموالي إلى شقتها. قاطعها فريد نهائيا وحظر على والدته استقبالها، وعلى زوجته التواصل معها بأيّ شكل من الأشكال.

واستقرت حنان بحي مشرق الشمس، ومرت الشهور وبدا لها أنّ الحياة تسير بهدوء.

إنّها مستقلة وسعيدة. . وكل شيء على ما يرام.

وفاتها في وهم الاستقرار أن تدرك بأنّها أصبحت قنبلة موقوتة. مطلقة أي نبع الخوف ومصبّه. تخاف منها النساء على رجالهن. ويخاف منها الرجال على أنفسهم. ما يبدونه من أسف عليها واستعداد لحمياتها والوقوف إلى جانبها ليس سوى حلقة من مسلسل استعراض فحولتهم وذريعة لدخول المغامرة.

و المجتمع يخاف منها على أبنائه وقيمه الأُخلاقية المزعومة.

أما هي فتتحوّل، بمرور الوقت، إلى كرة من خوف تدور في دائرة من خوف ما يجعلها دائما مستشعرة للخطر. .متوثّبة كلبؤة، مترقّبة للأسوأ. متوقّعة لشرّ قد يسقط عليها في أيّة لحظة.

و رغم هدوء حياتها واستقرارها الظاهري، كانت حنان تحس بقلق داهم يزحف فوق صدرها حين تفكر في المستقبل، وتشعر بوخز كلمة قال هيغو بأنّ الجحيم كله فيها: الوحدة.

سوف يمرّ الوقت وتشيخ. سوف تشعر بوطأة السكون وثقل الصمت وبشاعة الفراغ، وسوف تتمني لو أنّ طفلا بقربها يضحك بصوت عال أو يبكي، أو قطّة تموء أو عصفورا يزقزق أو أنّ أحدا يطرق بابها، في أي وقت من النهار. يثرثر معها. يبادلها الحديث عن الطقس والموضة وهموم الدنيا، ويحتسي معها فنجان قهوة أو كوب عصير.

وهكذا راودتها فكرة تبنّي طفل.

* * *

أمسية خريفية جميلة وحنان تشعر أنّها بحال جيدة. فقد تحسّنت بعد نزلة البرد الأخيرة. الأمور على ما يرام والسلام يغمر قلبها. إنّ الحياة هادئة تنقضي بين عملها وصديقاتها وزيارة أمها عندما يكون فريد غير موجود بالبيت. مازالت أمها تترجّاها أن تترك له الشقة

وتأتي للعيش معها، وما زالت حنان تجد في نفسها شجاعة الرفض. حياتها الماضية بدأت تصبح ذكرى. السنوات التي عاشتها مع يونس أُصبحت في خبر كان. انزوت بعيدا في ركن من الماضي. لم يكن فيها من المثير ما تنتصر له الذاكرة وكأنّها كانت سنوات فائضة عن عمرها، خطأ مطبعيا في كتاب حياتها أو جملة اعتراضية لا محل لها من الحب.

لكنها الآن بخير.

هكذا دائما، في أعقاب الفوضى يأتي الهدوء الجميل.

في ذلك اليوم استلمت راتبها الشهري. سدّدت الفواتير، الماء والكهرباء والنت. ملأت الثلاجة واحتفظت لأمها بملغ محترم مثل كلّ شهر. تعرف أنها ستعطيه كاملا لفريد مثل كل مرّة. أصبح عاطلا بعد أن قرّر ترك العمل عند يونس على إثر طلاقها منه. .و كأنما ليحسّسها بالذنب وكأنّما هي المسئولة عن كسله وانحرافه، وعن مرض أمها وعن وفاة أبيها.

لعلّها المسئولة عن أسقام المجتمع أو خراب العالم!

رنّ هاتف حنان. إنها مريم تذكّرها بموعد اللقاء عند نوال. كانت قد نسيت الأمر تماما. تحصّلت على رخصة السيّاقة منذ أيام وأصرّت نوال على دعوتها لشرب القهوة وجلسة ثرثرة رفقة أسماء ومريم احتفالا بالحدث.

لا يصعب على النساء إيجاد ذريعة لقاء من أجل الثرثرة!

ثرثرةُ قوارير

رحبت نوال بحنان ورافقتها إلى حجرة الجلوس حيث أسماء ومريم.

حجرة واسعة توزّعت فيها كنبتان وثلاث أرائك.أثاث بسيط لكن ينمّ عن ذوق. على البلاط سجادة رمادية وفي الركن مكتبة صغيرة ثبّتت على يمينها مرآة مستديرة الشكل ذات إطار نحاسي لامع.

غاصت حنان في أريكة صغيرة قرب نافذة مستطيلة تغطيها ستائر حريرية بيضاء.و قبالتها جلست نوال، فوق الكنبة وبجانبها مريم وأسماء.

يمكنك أن تتصوّر مهرجان الأصوات والضحكات وحمّى المجادلة حين تلتقي، حول صينية قهوة، أربع نساء مختلفات ومتشابهات ومجتمعات برباط الصداقة.

الرباط الوحيد الذي يستطيع أن يجمع في سلة واحدة، التوافق والاختلاف.

- «ألف مبرووك»! كنتِ خائفة أن لا تحصلي عليها. أحب إصرارك.

أطلقت أسماء الجملة بحماس شديد وهي تغرق خدّي حنان بالقبلات. أسماء أصغرهن سنا، أمينة المكتبة في نفس الثانوية حيث تعمل حنان. طويلة، نحيفة لكن ممتلئة الوجه حتى ليبدو وجهها أحيانا متناقضا مع باقي جسدها ،شديدة بياض البشرة مع نمش خفيف في خديها وأنفها. عيناها ضيّقتان وحين تبتسم تزدادان ضيقا، بينما ترتسم أسفل خدّيها الممتلئتين غمازتان عميقتان.

احتفلت أسماء منذ أسابيع بخطوبتها لسمير أستاذ الرياضة البدنية.

قالت حنان وهي تضم أسماء إلى صدرها:

- شكرا. لكن مهلا. .مهلا. لست ماهرة بعد.

وقالت مريم:

- الإصرار..هو كلمة السر. هذا ما ينقصنا عادة. تبدو الأمور صعبة ومستحيلة وما إن نباشر القيام بها حتى يتبيّن لنا أنّها ممكنة. . وكم كنا سنندم لو أننا فوّتناها.

مريم ،أكبرهن سنا وعقلا. حكيمة الشلّة. محجّبة. أستاذة فلسفة بالجامعة.

تبادلت النسوة الأخبار وتجاذبن حديثا متنوّعا عن المدينة ومتاعب الحياة والعمل،ثم قامت نوال مستأذنة ودخلت المطبخ وعادت بصينية نحاسية دائرية الشكل، وضعتها برفق فوق الطاولة المستديرة ذات السطح الزجاجي ثم أشارت إلى صحن على شكل قلب فيه

قطع من الكعك المحلى بالشكولاطة ومربىّ المشمش وقالت بنبرة لا تخلو من الفخر:

- حضّرت لكنّ الكعك..احتفالا بك يا حنان تنازلت وبقيت في المطبخ لأكثر من ساعة.

وأضافت باستياء:

- تعلمين أنيّ كلما أدخل المطبخ أشعر كأنّني أدخل غرفة تعذيب من العصور الوسطى!

وابتسمت حنان وقالت:

- أووه...جميل هذا الصحن على شكل قلب! هذا لطف منك صديقتي وتعلمين أني مثلك أكره المطبخ. تذكرين يوم أخبرتك أني أفكّر في رمي السكاكين، والصّحون والمقلاة والملاعق من النافذة وأبقي فقط على طقم القهوة الفاخر في الصينية النحاسية وربما أضع فيها قطع كعك ووردة حمراء. فقط.

وقالت مريم متهكّمة وهي تملأ بالقهوة فناجين فاخرة بيضاء مزيّنة عند الحواف بخط مذهّب:

- يا عيني على الرومانسية! غريب أمركما أنتما الاثنتان؟ ما به المطبخ؟ إنّه المكان الوحيد الذي من المفروض أن نجد فيه نحن القوارير الحرية والسّرور والانسجام. أشعر بالسعادة وأنا أتفنّن في الطبخ من أجل زوجي وأبنائي حتى إني كلما أحسّ بوادر اكتئاب أدخل المطبخ وأطهو. بالنسبة لي هو نوع من العلاج النفسي.

علقت نوال بنبرة مسرحية:

- مطبخ مريم للتحليل النفسي! أووو... سيكون اسما مثيرا لعيادة نفسية.

ثم واصلت بامتعاض:

- الذي لا أفهمه لماذا قصّمت الوجبات إلى فطور وغداء وعشاء؟ كانت تكفينا لقمة كل أربعة وعشرين ساعة مع حبة فاكهة وزجاجة ماء،و مجلة أو فيلم شيّق. كلما قلّلنا من كمية الأكل اقتربنا من الملائكة. الملائكة تطير لأنها لا تأكل ولا تشرب.

وقالت مريم وهي تضع قطعة كعك صغيرة في فمها:

- إيه عزيزتي. .توقّفي عن الأكل لثلاثة أيام وصدّقيني سوف تطير بك الملائكة.

و كأنّما شعرت أسماء بأنها لابد أن تقول شيئا في حضرة هذه التجارب الكبيرة فقالت بنبرة ارتياح:

- الحمد لله أنّ الجنة ليس فيها طبخ.

وعلّقت مريم وقد رفعت حاجبيها وهزّت رأسها:

- هذا على أساس أنّنا ضمنّا الجنة!

ونظرت نوال إلى مريم وقالت بخبث وهي تغالب الضحك:

- من هذه الناحية لا تقلقي. ربك كريم. إنّ امرأة دخلت الجنة

لأنها سقت كلبا، وأنت تسقين زوجك وتطعمينه منذ سنوات.

وعلت القهقهات.

وقامت أسماء من الأريكة وهي تمسح دمعتين سالتا من شدة الضحك. اقتربت من مكتبة نوال وراحت تدقّق في العناوين وتلامس الكتب بأناملها كما تفعل دائما حين تزور صديقتها. .ثم التفت إليها متسائلة باستفزاز واضح:

- هل من كتاب جديد في الطبخ؟

ولم تنتظر من صديقتها جوابا بل نظرت في المرآة بجوار المكتبة، وأخذت تسوّي خصلات شعرها وهي تدندن: من عزّ النوم بتسرقني..

- نعم عزيزتي بعد الزفاف سيسرقك من عزّ النوم أيضا. .لكن بشخيره.

علّقت نوال ضاحكة وأضافت وكأنها تصر على استفزاز أسماء:

- على فكرة منذ أيام قرأت صدفة على النت بأنّ رؤية القبر في المنام دليل على الزواج. .بصراحة أول مرة أثق في تفسير الأحلام.

قالت لها أسماء بثقة كبيرة:

- لو وقعت في الحب لغيّرت رأيك في الزواج.

- نعم..قلتِها بلسانك. وق ع ت، لأنّ الحب فخ لا تقع فيه سوى الغبيات.. .ثم من قال أني لست واقعة!؟ أنا واقعة في الحب ومشتقاته / وضحكت / أحب نفسي وأهلي وعملي وأحبكن.. وأحب التسوّق وأحب طلبتي ومن يدري قد أحب عميد كلية التاريخ يوما، رغم أنّه يأتي في كل بداية أسبوع مرتديا نفس البذلة مثلما يفعل التاريخ في بداية كل سنة!

وأضافت:

- متى تفهمان أن لا وجود للحب؟ نحن نصنع الحبيب بأيدينا. نظل نبحث عن كائن ذكري نرمي عليه رداء خيالنا وأوهامنا، و لأنّ هذا الكائن الأسطوري لا وجود له نصاب بالإحباط دائما.. ونشقى.

الحبيب هو دمية القش التي لعبنا بها في طفولتنا.

و كأنّ مريم رغبت في تلخيص النقاش فقالت:

- الزواج سنّة الحياة.

وقالت نوال بإصرارها المتعِب:

- أو الموت.

وواصلت وهي تلتفت نحو أسماء:

- في فيلم شاهدته منذ مدة، قالت صديقة لصديقتها، التقت بها بعد طول غياب: حسبتك ميتة؟ فأجابت الصديقة. لا.. متزوجة فقط!

وضحكت نوال.

ولكن مريم رمتها بنظرة عتاب قائلة:

- دعي الفتاة وشأنها.. لا تعكّري عليها فرحتها بالخطوبة.

ثم التفتت نحو أسماء وقالت بنبرة لا تخلو من وعض:

- لا تستمعي لها عزيزتي.

ووقفت حنان ومدّت يدها إلى نوال:

- قومي. تعالي معي إلى المطبخ. سنصنع قهوة جديدة. لندع مريم تلقّن أسماء أسرار المؤسسة العقابية!

* * *

- كأنّك تخفين شيئا أو تريدين إخباري بأمر؟

- نوال. أريد أن أتبنّى طفلا. لم أخبر أحدا بعد. أنت أول من يعرف.

- حقا..؟ قرأت في إحدى الجرائد أنّ الحصول على سلاح ناري، عندنا، أسهل من تبنّي طفل.

- أترين؟ لأنّ السلاح يقطف الحياة بينما التبنّي يزرعها. كم هذا مؤسف.

و قالت نوال بأسى واضح:

- أخشى أننا تحوّلنا إلى شعوب مهووسة بتبنّي الموت.

ثم سألت:

- هل فكّرت في بنت أم ولد؟

- ولد.

- و لماذا ليس بنتا؟

- حياة البنات صعبة ومعقّدة. سأتبنّى ولدا كي ألقّنه منذ الصغر احترام البنت. سأعلمه أنّ الأنثى خلقت منه وليس له، أنّها لم تغوه بالتفاحة الحرام، وليست سببا في خروجه من الفردوس.

- أخشى أنك دون وعي منك سوف تربّينه على نفس المفاهيم التي تربى عليها كل الرجال في شرقنا البائس. المرأة تربيّ جلادها وتنسج له بيديها حبل شنقها دون أن تدري.

- لن أخسر شيئا. لديّ كل الوقت لكي أجرّب. أبحث عن محام لأستشيره في الأمر وأيضا أريد رفع قضية ضد يونس. يرفض أن يعيد لي مجوهراتي وثيابي.

- أعرف محاميا جيدا سيساعدك. تعامل معه أبي ذات مرة. رويت لك ذلك؟ هل تذكرين؟

وأومأت حنان أن نعم.

حين عادت نوال وحنان إلى غرفة الجلوس كانت مريم

منبطحة على الكنبة وأسماء جالسة عند رأسها. لابد أنّها كانت تمدّها بالنصائح.

اعتدلت مريم وحاولت أن تقاوم الفضول فلم تستطع وسألت:

- فيم كنتما تثرثران هناك؟

وراحت نوال تسكب القهوة، منتشيةً وتروي لهن حكاية قد تكون حقيقة وقد يكون تفتّق عنها طيشها في تلك اللحظة:

- لا شيء. حسنا. .كنت أحكي لحنان عن «جنتلمان» تعرفت به في الفيسبوك. طلبت منه صورة شخصية بعد أن ظلّ يؤكّد لي أنّه رجل وسيم.. تعرفن ولعي بالرجال الوسيمين. لكن تصوّرن ماذا أرسل لي؟ لن تصدّقن.

ثم صمتت هنيهة كأنّما لترفع من مستوى الفضول قبل أن تواصل ضاحكة.

- أرسل لي صورة عضوه الذكري، وفي حالة استنفاره. تعتقدن بأنّني شجّعته؟ لا. لا. لم أفعل. لقد تحاورنا بكل أدب ووجدته رجلا مثقفا، ومتخلّقا.. أقصد من أولائك الذين يكرّرون تلك الكلمات..تلك الكلمات.. مثل: سيدتي الفاضلة وشكرا وعفوا وتفضلي ومعذرة و...

و قاطعتها مريم:

- لعلّه من الذين يعتبرون عضوهم هويّة. هل تذكرين أحد الكتب؟ نسيت عنوانه. قرأته ثم أعرته لك. تقول كاتبته، طبيبة نفسية بريطانية على ما أذكر. . تقول إنّ الرجل يطلق اسما على عضوه ،و قد يقسم به أغلظ الأيمان، وهناك من يستشيره ويتخذ القرارات حسب رغبته وإرادته و....

وقاطعتها نوال ضاحكة. .

- آه. هكذا إذا؟ هكذا إذا؟ الآن فقط عرفت من أين تأتي قرارات الحكّام العرب!

وانفجرت النسوة ضاحكات.

* * *

عند الباب، قبل أن تغادر حنان،أخذتها نوال جانبا ودسّت في حقيبة يدها كارتا صغيرا وهي تهمس في أذنها:

- هذا عنوان المحامي.

ونظرت حنان داخل حقيبتها وقرأت على الكارت:

الأستاذ نبيل بن عريف/ محامٍ لدى المجلس.

عزفٌ على «القانون»

سيأتي الموت ويأخذ قلبك..

عليك الآن أن تحب.

من أول يوم أدركت حنان أنّها ستغرم بنبيل. من أول لقاء، بل من أول لحظة وأول نظرة.

تأنّقت بشكل ملفت في ذلك اليوم.

كان صباحا خريفيا عاديا لكنها استيقظت وبها شعور غريب. تعرفون ذلك. ربما حصل معكم أيضا. تستيقظون بشعور لا تستطيعون وصفه بالضبط. تدركون بأنّ اليوم هو نفسه كالأمس وكالغد لكنه مختلف. ما الذي يغذّي ذلك الإحساس؟ قد يكون حالة مزاجية فقط، أو من يدري، ربما لأنّه في مكان ما على الأرض أو في السماء يحدث أمرٌ له علاقة بكم.

قدر الوقوع في الحب، مثلا.

في ذلك الصباح تردّدت حنان في ارتداء الجينز الأزرق الباهت

المعلّق على المشجب.

فتحت خزانة ثيابها ونظرت فيها لبرهة.

و رأت الفستان الأسود الذي جلبته لها سعاد من باريس. فستان محتشم لكن مثير. ربما إثارته في احتشامه. يصل إلى منتصف الساق بدانتيل تزيّن الرقبة ونهاية الأكمام وفتحة صغيرة في الخلف.

تذكّرت يوم دعاهما صديق ليونس لتناول العشاء احتفالا بدخوله فيلا جديدة.. وقالت ليونس ما رأيك؟ أي فستان أجمل. .أيهما أرتدي..الأسود أم الأزرق؟ «وقال دون أن يكلّف نفسه عناء النظر ناحيتها «لا أدري. ضعي أي واحد. .هل هذه مشكلة؟». .لم يكن يعنيه أبدا ماذا تضع، أن تتأنّق أو لا. ما ترتدي وما تقتني من ثياب. كان ذلك من بين اختلافاتهما وما عمّق المسافة بينهما. اغتاظت حنان وأقسمت ألاّ تخرج بذلك الفستان أبدا وكانت حين تتأزم وضعيتها ويقتلها الأسى تبكي بحرقة لحد انتفاخ أجفانها ثم تتوقف عن البكاء. تدخل الحمام. تغتسل. تتأنّق. ترتدي الفستان الأسود. تضع أحمر شفاه بلون صارخ. تغلق النوافذ بإحكام. تضع الموسيقى. موسيقى صاخبة جدا. وترقص، ترقص. ترقص.

حتى إذا أنهكها التعب، تذهب للنوم. تدخل في شبه غيبوبة!

و وجدتها فرصة لكي تتحرّر من قسمها وتحرّر الفستان الجميل من سجن الخزانة. سوف ترتديه دون بكاء. ووقفت أمام المرآة..امرأتان.

وغادرت مكتب الأستاذ نبيل بن عريف وهي امرأة أخرى!

هل يمكن لساعة أو ساعة ونصف من الزمن أن تقلب كيان امرأة؟

غادرت حنان المكتب وهي لا تمشي بل تطير. نوارس غافية على ساحل قلبها رفرفت، في لحظة واحدة، وحلّقت قريبا من مستوى سطح الحب.

اشتعل ضوءٌ أخضر.

توقّدت أنوثتها. سرى دفء لذيذ في قلبها. نبيل رجل جذاب، فارع القامة. قويّ البنية. وسيم وأنيق مثل نجم سينمائي. شعره أسود ناعم، عيناه بلون الكستناء وتشعّان فطنةً، شارب أسود كثيف يمنحه سحرا خاصا، وعلامة صغيرة فوق حاجبه الأيسر، كم أحبّتها! كأنّها أثرٌ لجرح قديم لم يقطب. وحين يتحدث ويرفع نظره نحوها ويمسّد الندبة بأصابع يسراه كانت حنان تشعر بأنّها تفقد قواها العقلية.

أصابعه عذراء.

لا أثر لخاتم الزواج!

تكرّرت زيارة حنان لمكتب نبيل، ولم يمض شهران حتى كان القدر قد أتم نسج قصة حب كبير، وكان الحبيبان قد تعانقا، وتبادلا تلك الكلمات اللطيفة الأولى واتّفق قلباهما أن يتواعدا وجسداهما أن يتماسّا.

وكان لابد أن يلتقيا في مكان ما. أن يجدا عشّا يسعهما معا ويشتعلان فيه معا. لم يكن ممكنا أن يكتفي الماجن بداخل نبيل بكلمات وردية أو التحليق في فضاء الخيال. وكان يشعر أنّ حنان مثله، تتوق للانصهار بين ذراعيه. بمرور الحب صار ماهرا في قراءة العيون. بإمكانه أن يرى شرارة الرغبة في نظرة الأنثى ويسمع صمت هديرها في صدرها.

نبيل من الذين يؤمنون بأنّ الحب وحده غير قادر على أن يسكت جوع جسدين ويطفئ عطشهما لإكسير النشوة وأنّه دون اللقاء والتحام الطين بالطين، بمباركة الرغبة، سيظلّ الحب كالطبل، ممتلئا بالفراغ، خاويا تماما مهما علا صوته وجفّ حلقه من فرط الصراخ.

المشكلة هي كيف سيلتقيان في هذه المدينة التي تحارب العشاق؟

طاغست ليست مدينة للعشق.

وعدته حنان بأن تتدبّر أمر اللقاء. وكان الوقت الذي عاشه نبيل على جمر الانتظار من أصعب الأوقات وبعد أيام مشحونة بالرغبة المحمومة والوجيب القاتل، كان يقف بباب شقّتها.

«انتظرك في شقتي على الساعة الثالثة»..قرأ الرسالة على هاتفه فترك كل عمله وقصد حيّ «مشرق الشمس».

كانت رغبته فيها أكبر من نداء العقل، ومن صوت التريّث ومن زئير

الخوف.

لا يهزم الخوف سوى الرغبة.

ليس الحب هو الأعمى بل الرغبة.

كان يجب أن يحمل لها معه هدية. لا يدري... تلك الأشياء التي تحبها النساء...علبة شكولاطة أو زجاجة عطر أو على الأقل باقة ورد ولكن اضطرابه وتسرّعه ودهشته أنسته الأمر.

فتحت حنان الباب بحذر مخافة أن تحدث جلبة. قبّلت نبيل قبلتين على خديه ثم سارت أمامه إلى غرفة الجلوس. وسار خلفها بخطوات لا تخلو من اضطراب، متأمّلا جسدها الجميل وشعرها المنسدل على كتفيها كشلال أسود، متلذّذا بسماع خفقان قلبه، محاولا كبت انفعاله، مدركا أنّ فتنة جسدها وهي مدبرة لا تقل عنها وهي مقبلة.

و فكّر لو أنّه فقط عانقها وقبّل تلك المنطقة خلف أذنها لأُصيب بالجنون.

لكن بعد وقت قصير، كانا قد تجاوزا عتبة العناق والتقبيل إلى ما هو أعمق وأخطر.

لقد غاب العالم واختفى كل شيء من حولهما، الغرفة والشقة والحيّ والأرض والسماء والبشر. ما من شيء. ما من أحد سوى نبيل

العاشق الأبديّ الذي يمارس الحب بحواسه الخمس..و حنان شعلة قلبه النورانية. نعيمه وجحيمه. ضلعه الذي يرى أنّه معوجّ بدونه.

و هو ملتحم بها، متغلغل فيها، شعر ألاّ رغبة له في الانفصال عنها. قال لها «دعيني هكذا إلى الأبد، منصهرا فيك، محجوزا في رحمك كي يولد الحب» وقالت باستغراب «الذي أعرفه أنّ الحب يولد من القلب؟!»

وقالت لها نبيل. .القلب يولد من الرحم.

و هكذا. .في كل لقاء كانا يعيدان للحب سيرته الأولى. يخلع نبيل وقار المحاماة ويعود كما هو.. كطفل يمارس شغبه في حضن أمه. يشعر أحيانا بأنّ المحاماة مهنة تحتّم عليه التنصّل من جنونه والتنكر لشيطانه الجميل. مهنة تفرض عليه نمطا معيّنا من الكلام والمظهر والسلوك والمعاملات. تصبح تحرّكاته وسكناته محسوبة عليه. نبيل يحب توفيق. يعتقد أنّه أشجع منه بحيث يستطيع أن يكون نفسه دائما ولا يحتاج لأن يغلّف جنونه بغلاف الوقار البرّاق.

عدا توفيق لا أحد كان على علم بعلاقتهما / أو هكذا كان يعتقد /

كان المفروض أن تكون العلاقة بين نبيل وتوفيق مهنيّة، في حدود العمل فقط، غير أنّ نبيل شعر به قريبا جدا منه، أحبه رغم استهجانه للكثير من أفكاره لكن على رأي أوغسطين «مجنون هو الإنسان الذي لا يعرف أن يحب الناس على ما هم عليه».

يتميّز توفيق بميل إلى العبث. كأنه طفل صغير، مدلّل. يحدث أن يكون غريب الأطوار أيضا. كثيرا ما شعر نبيل بالخوف عليه حين يجد أفكاره تكاد تصل حدّ التناقض مع مهنته المستقبلية كرجل قانون متمرّس ومؤمن بالقضاء.

ذات يوم وهما يتحاوران في العدالة قال توفيق:

- القوانين والضوابط؟! القوانين والضوابط؟! ما هي القوانين والضوابط؟ هي ليست ممهّلات في الطريق، علينا أن ننتبه ونخفّض السرعة لكي نجتازها بسلام.لا..لا.

- و ما هي إذا يا عبقري؟

- هي مثل حواجز السباقات، علينا القفز فوقها بسلاسة وخفّة. طبعا يعتمد ذلك على مدى سرعتنا عند الانطلاق. لذلك وجب دائما الانطلاق بسرعة معيّنة منذ البداية.

كان نبيل يبدي استهجانه من تفكير توفيق، إنمّا في قرارة نفسه يحب الاستماع إليه ومناقشة هلوساته.

- أتدري لماذا اختُرعت القوانين يا أستاذ؟ ببساطة لكي نخترقها. الحياة أبسط من أن نعقّدها بالقوانين، ثم ألا ترى أنّه لا يخترق القوانين سوى من أوكل إليهم ضبطها ولا يكسرها إلاّ من وجب عليهم احترامها؟

- يذكّرني كلامك بمارك توين «:الحياة قصيرة، اكسر القوانين، سامح بسرعة، قبّل ببطء». ولكني لا أنصحك سوى بالثالثة طبعا!

و بضيف نبيل معاتبا لكن عتاب ود وصداقة:

- أخاف عليك من تفكيرك بهذا الشكل. علينا احترام القوانين. كن حذرا، مهنتنا كمن يمشي على الحبل. إذا لم تحافظ على توازنك فإنّك تنزلق وتسقط. لا تنسى أبدا أنك أدّيت القَسَم. مهنتنا رسالة تضاهي رسالة الأنبياء. علينا مطاردة الحقيقة. الحقيقة هي الكنز الذي يهون كل شيء في سبيل العثور عليه. علينا أن ندافع عن الأبرياء والأخيار ونقف في صفّ المظلومين والمقهورين. الأشرار يتكفّل بهم الشيطان.

هل كان يقينا راسخا أم محض كلمات؟

كلمات يكاد نبيل أن يكفر بها حين يرى العدالة تحاكم الضحية وتغضّ الطرف عن الجلاّد. كان يجاهد كي يغرس في المحامين المتربّصين لديه قيم الحق والإيمان بالعدالة والثقة في القضاء واحترام القضاة.. وفي الوقت نفسه كان يدرك بأنّ إخطبوط الفساد يمدّ أذرعه الوسخة، في كل يوم، أبعد وأبعد لكي يحوط كل شيء، وبأنّ وراء كل محامٍ فاسد قاضٍ فاسد ووراء كل قاضٍ فاسد حكومة فاسدة وأنّ القانون الذي لا يحمي المغفّلين قد يحمي الفاسدين، وأنّ الكفّة غير متوازنة بين الفساد وبين الحرب ضدّه. حربٌ محتشمة

خجولة وفسادٌ منتشر كالجراد. إنّه في كل مكان. ..أعوان شرطة فاسدون، وزراء فاسدون، مدراء فاسدون، أطباء فاسدون، محامون فاسدون، قضاة فاسدون، أساتذة فاسدون، ولاّة فاسدون، برلمانيون فاسدون. أئمة فاسدون. لطالما خشي أن تكون صحيحة وجهة نظر نوبو أكينوتوهارا في مؤلفه «العرب وجهة نظر يابانية» عندما كتب «..كلهم متدينون وكلهم فاسدون.»

و كان نبيل على يقين أن فساد العدالة هو الكارثة الحقيقية وأنّه إذا فسد القضاء فسد كل شيء.

* * *

التقى توفيق بحنان في إحدى زياراتها للمكتب. كان قد دخل قبل أن تغادر بقليل، وحضر جانبا من حديث الحبيبين.

و حين خرجت، سأل نبيل توفيق عن رأيه فيها.

قال توفيق وهو يرمق نبيل من طرف عينه بنظرة خبيثة:

- رأيي فيها؟ بصراحة ولا تغضب؟ كأنثى..بدت لي غير مشبعة جنسيا.

و انفجر نبيل ضاحكا.

الجميل في توفيق أنّه يجعله يضحك. كان دائما يستغرب قدرته على تحويل أيّ موقف مهما يكون إلى نوبة ضحك.

قال نبيل:

- أيها الخبيث، وطبعا تودّ لو أوكلت إليك المهمة.
- رأيتك مهتما بها. وإلا كنت سأسعد بذلك!
- لقد قررت أن أحبها.

كنت تستطيع أن تقول «أنا أحبها «...هكذا ببساطة. لمَ لم تفعل؟ هل خشيت أن تبدو ضعيفا أمام توفيق / أو أمام نفسك؟ /

هل صرت تعتقد بأنّ الاعتراف بالحب ضعف؟

الحب؟ نعم هذا ما شعر به نحو حنان وهكذا كان الحب يأتيه دائما، دون مقدمات، لا يدري نبيل لمَ فكر بأنّ توفيق قد يهزأ منه.

سأله توفيق مستغربا:

- قرّرت؟! وهل الحب قرار؟
- طبعا. نحن نقرّر أن نحب كما نقرّر أن نكره.

و صاح توفيق:

- إذا ستقع أخيرا؟ أنت الذي قلت بأنّك ضد الزواج!

- زواج؟ هل ذكرت كلمة زواج؟ أتحدث عن الحب يا مجنون! أنت تعرف بأنني لا أضع الزواج ضرورةً للحب!

- لكن الحب ضرورة للزواج.

و قال نبيل ضاحكا:

- هذا أنت من يستطيع نفيه أو إثباته!

توفيق، الولد الوحيد لعائلة الربيعي الثرية، تزوّج في سن مبكرة.. لم يكن بعد قد أتمّ عامه الثاني والعشرين وكان متعوّدا على اللهو والمجون، وفي إحدى حلقات اللهو حملت الفتاة، واضطر أن يتزوّجها درءا للمشاكل وتحت إلحاح عائلته. ولأنّ «الحب أوله هزل وآخره جد » كما يرى ابن حزم في طوق الحمامة فقد انقلب لهو توفيق إلى حفل زفاف ووليمة عشاء، وزوجة وبيت ومسؤولية وطفلة جاءت إلى الدنيا بعد سبعة أشهر من العرس. لكن توفيق، وحتى بعد مجيء ولدين آخرين واستقرار حياته نسبيا لم يستطع التخلّص من جنون القفز من مغامرة إلى أخرى. .حتى إنّه يفكّر في زوجة ثانية.. الله شرّع الزواج بأربع. .كان يقول لنبيل ويقول له نبيل لم يظهر تديّنك العميق إلاّ في هذه المسألة أيّها الخبيث!

أمّا نبيل بن عريف فقد شارف الوصول إلى محطة العقد الرابع من عمره ولم يستطع إقناع نفسه بفكرة أن تقاسمه امرأة حياته، حتى ولو كانت ملكة جمال الكون. كان على قناعة أنّه لن يتحمّل أن يشاركه وجهٌ آخر غير وجهه غرفة النوم والمطبخ والحمام، ليلا ونهارا وعلى مدار العمر! «كأنّك نركيسيوس المغرور الذي أغرم بصورته في الماء

معتقدا أنها إحدى الحوريات الفاتنات!» كان يقول له توفيق.

كان نبيل قد استأجر شقة بوسط المدينة. . ثلاث غرف ومطبخ وحمّام. استعمل أوسع غرفة مكتبا لمزاولة المحاماة وظل المنزل القديم في الطقطاقية على حاله..يذهب إليه من حين إلى آخر لكي يتفقّده أو ربما يتفقّد ذكرياته. لم يقرّر بعد ماذا سيفعل به. في فترات قصيرة ومتباعدة، كانت فكرة الزواج والإقامة في ذلك المنزل وإنجاب الأطفال تضيء في ذهنه كنور النيون، لكن سرعان ما تنطفئ.

في الحقيقة، كان قد بدأ تخصصه في الجامعة بدراسة علم النفس، ربما لاعتقاده بأنّ ذلك سيجعله يجد أجوبة لكل أسئلته عن الوجود والموت والغياب والألم. .لكن مع نهاية السنة الأولى ضاق ذرعا بمقاييس علم النفس.

جافة ولا تجيب على أي سؤال.

حوّل إلى دراسة القانون وقرّر أن يصبح محاميا.

قرأ في كتب الاعترافات أنّ القدّيس أوغسطين..ابن الدموع ،الذي ظلّت والدته القديسة مونيكا تبكي لمدة ثلاثين سنة وتدعو الله أن يهديه، تألّق في فن الخطابة ودرس المحاماة رغم اعترافه بأنّه لم يحب ممارستها، لاعتقاده بأنّ «نجاح المرء في المحاماة رهين بكذبه ونفاقه». المفكر الفرنسي فولتير أيضا تمنّى أن يكون محاميًا «لأن المحاماة أجمل مهنة في العالم». أجمل؟ كلا..كلا.. ليست الكلمة

الدقيقة بالنسبة لنبيل.   ما فكّر فيه وقتها أنّها مهنة نبيلة وفيها الكثير من الخلق والإبداع. سحرته المزاوجة الرائعة بين القانون وبين الأدب. بين نعومة الكلمة وبين صلابة الحجة. بين الزيف الواهي وبين الحقيقة الدامغة. وفكّر أنّ الغرق في هموم البشر ومشاكلهم ينسي المرء وحدته وهمومه وأنّها مهنة تعلّم المرء بأنّ الذي يحدث في حيوات الآخرين أمرّ وأقسى وأخطر مما قد يحدث له.

وجد في هذا الكثير من التعويض النفسي وتحمّل لورطة الحياة.

أنت رجل تتمناك كل النساء وترحّب بك كل العائلات. من قال له هذا؟ آه. .لابد أنّه الحاج عمار والد توفيق. . نعم. هو. .كان يقول لنبيل «تزوّج يا ولدي، جد لك امرأة صالحة ،المرأة الصالحة هي دنيا الرجل وهي آخرته. امرأة تهتم بطعامك ولباسك وبيتك وترعى شؤونك. أنت رجل تتمنّاك كل النساء وترحّب بك كل العائلات!» وكأنّ المشكلة في من تتمنّاه وليس في عدم قدرة نبيل على التقدم خطوة واحدة صغيرة نحو مربّع الزواج!

تهتم بطعامي ولباسي وبيتي وترعى شؤوني! ههه.

وكأنك تحدثني عن مواصفات الخادمة الجيدة يا الحاج؟!

يعتقد نبيل أن لا أحد يستحق أن يضحّي من أجله باستقلاليته وتفاصيل حياته اليومية الغارقة في الفوضى والقضايا وأسرار وهموم الناس. يعتقد أنّ من يتزوّجون جبناء، يخشون الوحدة، يخافون البقاء أحرارا بلا قيود. .يفكّرون في لحظات هرمهم حين يصبحون عاجزين.

يتزوجون لأنّهم أنانيون وينجبون الأطفال لأنّهم أنانيون.

لماذا سأنجب طفلا؟ لكي يموت أطفالي بسبب الحروب أو الأوبئة أو المجاعة؟ لكي تموت والدته، كما ماتت والدتي، بمرض مجهول؟ لكي يحدث له ما حدث مع إسماعيل أو زكريا؟ لكي أضطر لحمله على كتفي والفرار به بعيدا عن جحيم النار والرصاص والقنابل؟

لكي يقتلني الأسى إذا لم أوفّر له المكان الدافئ واللقمة السائغة والثوب الجميل؟

لطالما فكّر نبيل بأنّ العالم يمضي نحو مصير كارثيّ، وأنّ الأرض سوف تشتعل، وتنتشر الحروب وتتكاثر الأزمات وتسير البشرية نحو الانقراض، وسينقسم العالم تدريجيا إلى محميّات متفرّقة. كل محميّة تحارب المحميّة الأخرى باسم الدين أو المذهب أو القومية. وأنّ التفوّق التكنولوجي والعلمي الذي تدّعيه الدول الكبرى ما هو إلا واجهة تغطي النيّة الحقيقية. . نيّة الدمار الشامل، لذا وجب أن نعيش كل يوم وكأنّه اليوم الأخير لنا على هذا الكوكب فالحياة أثمن من أن نضيّعها في التفكير وأجمل من أن نهدرها في التساؤل.

الحياة فرصة وُجدت لكي نعيشها لا لكي نفكّر فيها.

* * *

و لأنّ توفيق ظل صامتا كأنما يفكّر في قضية النفي والإثبات، فقد

قال له نبيل مداعبا:

- أراك منذ فترة عاطلا عن الحب. أستطيع أن أجعلك تتعرّف على نوال صديقة حنان. جميلة وغير متزوجة. أستاذة تاريخ بالجامعة.

و انتفض توفيق كمن لُدغ:

- تاريخ؟ يا لطيف! لا. .لا. .ليس لي ميل للمشتغلات بالتاريخ. تعجبني المهتمّات بالجغرافيا!

و اتبع عبارته بضحكة خفيفة ذات مغزى.

لا يتورّع توفيق عن إبداء رأيه ولا يجد حرجا في التعبير عن أفكاره مهما كانت غرابتها أو جرأتها. . ولهذا يحبه نبيل أيضا ربما لأنه كان يتمنى لو أنّه مثله.

* * *

انشغل نبيل جدا في فترة ما بعد الظهر. قضى الوقت في المكتب، يرد على المكالمات، يرتّب المذكرات

و حين فتح حاسوبه ونقر على زر الرسائل في بريده الالكتروني وجد نفس الرسالة في خانة بريد غير هام «سليمة من عنابة، ابنة فاطمة

بن حامد. أبحث عن أخويّ نبيل وزكريا بن عريف. الرجاء الاتصال بالرقم (.......)»

لم يهتم وعكف على مراجعة مذكرته للترافع في قضية مجيد بوعيسى بمحكمة سوسة بتونس. قضية شاب في السادسة والعشرين، غامر بركوب البحر في رحلة تضم 14 حراقًا انطلقت من وادي بقرا ببلدية سرايدي بعنابة باتجاه مدينة سردينيا الإيطالية.لكن بعد قطع مسافة 160 كيلومتر حدث اضطراب جويّ وخلل في جهاز «جي بي، أس»، وجرفت التيارات البحرية القارب فوصل بعد أربعة أيام إلى ساحل جبل «سقلاب» على الحدود الجزائرية التونسية. تم القبض على «الحراقة» من طرف التونسيين وأودعوا السجن.

أحضر توفيق الجرائد.قلّب نبيل صفحاتها وكالعادة متخمة بالجريمة. حافلة بأخبار الربيع العربي وصور النهب والاختطاف والقتل والدمار. حافلة بسحق البشر للبشر، ووجد نفسه يفكر في هذا الإنسان الذي يقترف جرم القتل... ما لون دمه؟ ما شكل قلبه؟ بأيّ دين يُدين؟ كيف يفكّر؟ أيّ إله يعبد؟ ماذا يرى حين يقف أمام المرآة؟ هل يحب؟ هل يبكي؟ هل يملك الغدة الدّمعية؟ وما الذي يمكن أن يُبكيه؟ الموت؟

كيف إذا كان هو نفسه الموت؟

والأغرب من كلّ هذا كيف يستطيع أن ينام؟

رمى بالجريدة فوق المكتب وقام. عدّل من هندامه وهمّ بالخروج.

رنّ هاتفه. إنها حنان تسأله إذا ممكنا أن تراه وقال نعم.

و سأله توفيق وهو يقوم ليضع ملف أحد الزبائن في الخزانة:

- ستلتقي بها؟

ثم أضاف بنبرة ساخرة فيها من الاستفزاز أكثر ممّا فيها من اليقين:

- لا تنسى. ما اجتمع رجل وامرأة إلاّ كان الشيطان ثالثهما.

- ومن يكون ثالث أو رابع أو عاشر من يجتمعون باسم الله لكي يقرّروا تفجير سيارة مفخخة في ساحة آهلة بالأبرياء؟

لا يدري كيف خرجت العبارة من فمه. كان كتلةً من الغضب. غاضبا من هذا العالم الرجيم العامر بالدم والدمار والاغتصاب والاختطاف.

و لم يجبه توفيق ولم ينتظر منه نبيل إجابة.

كان يفكّر بالموت غير العادل وخياله المدهش وطريقته في حصد الأرواح في كل شبر من الأرض. مرّت به في لحظة كالبرق صور الذين أحبّهم وفقدهم وفكّر في الذين لا يعرفهم ولم يرهم ولم يعودوا من سكان هذا العالم. .أولئك الذين حصدتهم الأوبئة أو الزلازل أو الحرائق أو الفيضانات أو الفتن أو الحروب الغبيّة.. منذ أيام عاد من دفن أحدهم. دائما نفس اللوحة ذات الوجهين: رجال يمشون خلف الميت مطأطئين، مسبّحين، مستغفرين، صامتين وإن تحدّثوا فعن القبر وأهواله والآخرة وعذابها، ثم يعودون، بعد الدفن، رافعي الرؤوس،

مبتسمين، يثرثرون في السياسة وغلاء المعيشة!

في ذلك اليوم قال له زميله، الأستاذ نور الدين «المشكلة ليست في الموت بل فينا نحن. ندرك بأنّه حق وأن لا أحد خالد ورغم ذلك نذهل لخبر الموت ونصدم ونظلّ نبكي. صراحة، لن أبكي على ميّت بعد اليوم لأنّني أيضا سوف أموت. الموت عادل. مآلنا جميعا في قبضته، وهو الأمر الوحيد الذي لا يحسد بعضنا بعضا عليه».

هل حقا الموت عادل يا زميلي يا نور الدين؟

هذا الموت غير عادل، غير عادل أبدا!

كان عليه أن يكون رحيما بما أنّ الحياة ليست كذلك. كيف يكون عادلا وأحدهم يموت بطريقة بشعة، منسوفا في الجو كحفنة رمل، أو مذبوحا من الوريد إلى الوريد بسكين حادة بينما يموت آخر في غرفته، محاطا بأهله وأصدقائه وطبيبه، ممدّدا بكل هدوء على الفراش؟

فراش الموت!

حين كان طفلا، اعتقد نبيل أنّ الموت فعلا يملك فراشا، قطعة قماش يحملها على كتفه ويدور بها في مسرح الحياة ليلا. فقط ليلا، وحين يقرّر سحب الدور من أحد يبسط له الفراش ثم يقف عند رأسه. ينتظر.. لثوان أو دقائق أو ساعة على أكثر تقدير وينتهي الأمر.

***

«حبيبي. . لماذا ترتدون هذا الروب الأسود في المحكمة؟»

سألته حنان ذات لقاء وهي تتحسّس بأصابعها الطويلة ياقة الروب الأسود المعلّق على المشجب يمين المكتب، ثم تقرّبه من شفتيها وتلثمه بحب كبير.

و وعدها نبيل بأن يروي لها الحكاية.

و في لقاء تلك الأمسية بشقتها قال لها. .اسمعي القصة يا حبيبتي.. في عام 1791 تقريبا، بفرنسا ،وقف قاض في شرفة منزله وبالصدفة رأى مشاجرة بين شخصين انتهت بسقوط أحدهما وهروب الآخر. أحد المارة أخذ القتيل وذهب به إلى المستشفى لإسعافه، إلا أنّ الضحية لفظ أنفاسه الأخيرة، فاتهمت الشرطة ذلك المنقذ. القاضي نفسه الذي شهد الحادثة كُلّف بالحكم في القضية وحكم على الشخص البريء بالإعدام لكن بعد وقت، شعر بتأنيب الضمير فاعترف أمام الرأي العام بأنه أخطأ الحكم، فثار الرأي العام ضده واتهمه بأنّه ليس عنده أمانه ولا ضمير. وذات يوم بينما القاضي يترأس المحكمة وقف أمامه محام مرتديا روبا أسود فسأله القاضي: لماذا ترتدي هذا الروب الأسود؟ فقال له المحامي: لكي أذكّرك بما فعلته من قبل وأنّك حكمت ظلما على شخص برئ بالإعدام. وهكذا أصبح الروب الأسود هو الزىّ الرسمي في مهنتنا.

صدّقيني حبيبتي كلما أضعه على كتفيّ أشعر بقشعريرة ويرتسم أمامي وجه الرجل الذي أعدِم ظلما.

و قالت حنان بأسفٍ شديد:

- أوووه. . يا إلهي. هذه قصة حزينة. .كم أكره الظلم.

قال نبيل:

- أنا أيضا أكرهه.

و أردف:

- عليّ أن أغادر. عندي قضية معقّدة في محكمة عنابة غدا. . المجرم سيأخذ مؤبّدا إن شاء الله.

عند الباب طوّقت عنقه بذراعيها. التصقت به لثوان كما تعوّدت أن تفعل وهمست في أذنه. . «ما أروع المؤبد فيك.»

معاذ الله أن تكوني بشرا. ما أنت إلاّ ملاكا ضلّ طريقه إلى الجنة!

ما اجتمع رجل وامرأة إلاّ كان الشيطان ثالثهما يا توفيق؟!

و أين تجتمع الملائكة إذا يا صديقي؟

أنا لم أفعل شيئا سيئا أبدا يا الهي العظيم.

لم أقتل بشرا ولا حيوانا، ولم أؤذ حشرة.

يا الهي العظيم أنا فقط أحب.

و قفزت الفكرة في رأسه.

- حنان. اتّخذي قرارك بسرعة. قولي. هل توافقين على السفر معي إلى سوسة؟

- السفر؟ سوسة؟ أنت تفاجئني.

- نعم أعرف أنا أيضا فاجأت نفسي بالفكرة الآن. ستكون لنا خمسة أيام. لنا وللحب فقط.

- الأمر ليس بهذه البساطة. عليّ إقناع والدتي أولا.

- افعلي. أنتظر اتصالك. سنسافر بعد يومين.

خير الحب عاجله.

هكذا حدّث نفسه وهو يخطو مغادرا حي مشرق الشمس ويهزّ رأسه بفرح صبيانيّ.

طفح جلديّ

«الحب، مثل الزئبق في اليد.

أبقها مفتوحة، يظل في كفّك

اضغط قبضتك ،يتسلّل من بين أصابعك»

دوروتي باركر.

- ألووو حنان؟
- أهلا نوال. كيف حالك؟
- بخير الحمد لله.. أود الخروج للتسوّق. هل ترافقينني؟
- ليس هذا المساء. أنا مشغولة.
- تنتظرين نبيل. أليس كذلك؟ ماذا قررت؟ هل ستسافرين معه؟
- ....
- حنان. ألم نتحدث في الموضوع؟ ألم تعديني بأن تضعي حدا لعلاقتك به؟
- ....

- ألووووو. أنت معي؟ اسمعيني. إنّه يتلاعب بك. لو كان يحبك كان طلبك للزواج. تعرفين رأيي في الزواج لكن بالنسبة لك هذه العلاقة خطر عليك. إما أن توثّقاها رسميا أو تنفصلا.

- أحبه نوال. . أحبه ويكفيني الإحساس بوجوده في حياتي. أعرف أنيّ أرتكب خطأ. أعرف أنّه قد يتخلّى عني في أية لحظة وأنيّ أكبر منه سنا ولكن حين يتخذ القلب قراره لا يصبح للعمر معنى. لا يصبح لأيّ شيء أيّ معنى.

- أرجوك. . لا تتهوّري. ماذا لو علم طليقك بالأمر أو فريد؟ ألم أخبرك أني رأيت يونس أكثر من مرة يحوم حول العمارة؟ فكّري حنان..لن يرحمك الناس. تصرّفي بعقلك.

- بعقلي؟ لا. . لا تحدّثيني عن العقل، رجاءً. سنوات وأنا أمشي خلف عقلي مثل كلبة وفيّة ولم أكن سعيدة كما أنا اليوم. سأتبع قلبي ولو قادني إلى حتفي. على الأقل أموت مختنقة بعطر الحب.

- كيف يتورّط في علاقة كهذه وهو رجل القانون؟ المفروض أن يكون واعيا بخطورة الأمر. .دعيني أتحدث إليه. على الأقل وثّقا علاقتكما بخطوبة.

- لا. .لا تفعلي. سيعتقد بأني طلبت منك ذلك وسيستاء.

- عجيب. . تهتمين لمشاعره ولا تهتمين لنفسك. عموما أنا

نصحتك. سلام.

و غاضبة، أنهت نوال المكالمة.

* * *

نوال مستاءة من تهوّر صديقتها.

ربما ما كان على حنان أن تخبرها بأمر السفر. ربما ما كان عليها أن تخبرها بعلاقتها بنبيل من الأساس! لكن..أيّ قلب يستطيع أن يعبّ الحب دون أن يفيض به؟

أول ما كانت حنان تفعله بعد كل لقاء مع نبيل هو الاتصال بنوال لتروي لها تفاصيل التفاصيل. لم تستطع كتم الأُمر. لم تستطع حمل ذلك الشعور وحدها مثل سرّ عسكريّ خطير. إنّ الاحتفاظ بسرّ الحب أمرٌ متعب ومثيرٌ للقلق. يظل يدغدغ المرء إلى أن يبوح به. بإمكان أي كان أن يحزن لوحده ويغضب لوحده ويبكي ويثور لوحده ويمر بشتّى ألوان المشاعر لوحده. كل إحساس تستطيع أن تغلق عليه أبواب روحك إلا الحب. إنّك إذا أطبقت عليه صدرك أوشك أن يقفز كأرنب من عينيك ويشرئب بعنقه من خلف أذنيك ويفوح عطره من تحت أظافرك ومن شعرك ومن أهدابك.

الاعتراف بالحب فضيلة.

بعد طلاقها، لم يكن الوقوع في الحب يشغل تفكير حنان.. لم

تتصوّر أن يحدث ذلك. آخر عهد لها بالحب كان أيام الجامعة. أغرمت بطالب في كلية اللغات. لكنه سافر للدراسة في بريطانيا ولم يعد. ونسيته.

لم يكن الحب هاجسها لكن، مثل كل أنثى، كانت تحتفظ في مكان عميق في قلبها بصورة الرجل الحلم.

الحب؟

كان على منظمة الصحة العالمية أن تصنّفه من بين الأمراض الفيروسية الخطيرة ،غير المعدية / أو ربما المعدية./ موت صغير على رأي بن عربي. طفحٌ جلديّ يلهبك من أعلى فكرة في دماغك إلى أخمص حلم في قلبك.

الحب.

ذلك الذي يقع فيه البشر كما يقعون في المرض تماما، مع فارق بسيط: يمكن الشفاء من المرض!

بعد أول لقاء بنبيل اتّصلت حنان بنوال، وقرأت لها خربشة كانت قد دوّنتها على دفتر صغير:

« حبيبي صوته قصيدة

ضحكته فصلٌ خرافيٌّ مجيد

يأتي بين الربيع وبين الصيف.

صدره بحرٌ معشوشب».

و صاحت نوال. .الله!. .يا سلام! كأنّك أصبحت شاعرة.

و قالت حنان الحب الذي لا يجعل الأنثى تقول الشعر ليس حبا، وهي ليست أنثى.

* * *

أخبرت حنان والدتها أنها مسافرة إلى تونس في رحلة عمل وتكوين مع بعثة من مديرية التربية. وافقت على مضض. «ماذا سأقول لفريد؟» قالت حنان «لا أدري أمي، قولي ما شئت. هذا عملي ولابد أن أحضر الندوة».

ما أسهل الكذب!

لم يحدث في صغرها أن كذبت على والدتها. ورغم ذلك كانت ترتاب بها كثيرا. أحيانا كانت ترسل فريد في أثرها لكي يتأكّد من المكان الذي تكون فيه.

و اليوم. .إنّها تصدّق كل أقوالها.

هل صارت ماهرة في الكذب أم أنّ أمها اتخذت قرارا بأن تصدقها

دائما؟

حين تقول الحقيقة يرتاب بك الناس وحين تتفنّن في نسج كذبة وتلفيقها يصدّقونك!

ستسافر معه.لا يمكن أن تضيّع فرصة وجودها برفقته. بعيدا عن هنا.

بعيدا عن الخوف وعن مدينة تكره العشاق.

* * *

خمسة أيام في الجنة

في حضرة الحب، تصبح غرفة فندقٍ بمدينة ساحلية تدعى «سوسة»، تعود نشأتها إلى القرن السابع بعد الميلاد، هي الجنة.

ويصبح ممرّ قصير يربط الشارع بالبحر، ممشىً من وإلى الفردوس.

في الطريق لم يكون الحبيبان قد تبادلا سوى بضعة كلمات.

أيّ حديث يستحق أن يقال حين تكون في طريقك إلى الجنة؟

كانا يستمعان إلى الأوبرا العالمية «سأذهب معك» وتهيّأ لهما أنهما مسافران نحو بحار بعيدة لم يرها أحد. «هذه هي سوسة إذا. . جميلة»، قالت حنان بحماس طفلة. «روت لي أمي أنّ جدي كان يقول / لو عندي المال نسكن سوسة /» وقال نبيل. . «نعم إنها مدينة جميلة حقا».

ينتصب فندق «الجندول» في قلب المدينة بالقرب من الملعب الأولمبي وغير بعيد عن شاطئ ميناء القنطاوي، ولأنّ قوانين الفندق تمنع غير المتزوجين من النزلاء من مشاركة الغرف، فقد حجز نبيل

غرفتين لا يفصل بينهما سوى رواق ضيّق بحيث يخطو خطوتين فقط ليكون داخل الغرفة رفقة حبيبته.

* * *

لم تكن بهما رغبة بالتجوال في مكان واحد أو الأكل في مطعم معيّن. اتفقا أن يمضيا الأيام الخمسة في ضيافة الحرية والحب. كانا يقضيان الصباح هائمين على طول الشاطئ، متعانقين ومختلسين القبلات، وفي المساء يجوبان شوارع المدينة، تاركين لأقدامهما حريّة حملهما حيث تشاء.

في إحدى الليالي، وكان الجو جميلا وسوسة تعرض لزوارها ولعشاقها آخر لمسات الدفء قبل أن يحل الشتاء وينتهي موسم الاصطياف، مرا بحيّ شعبي زيّن بالمصابيح، وبدا من الهرج والموسيقى أنّه حفل زفاف. وهما بالقرب أوقفتهما امرأة بدينة، قصيرة القامة، عنقها يرزح تحت ثقل مجوهرات تقليدية. لابد أنّها صاحبة الفرح، والدة العروس أو ربما العريس. رحّبت بهما وأظهرت كرم التونسي فدعتهما إلى الدخول، وقدّمت لهما كاسي عصير وقطعتين من الكعك. «شكرا ومبارك العرس..» قال نبيل «أنا محام وهذه زوجتي» وابتسم ونظر إلى حنان وكانت تبتسم أيضا وعيناها طافحتان بالفرح. وشعر نبيل بالسرور كون هذه العادة/ إقامة الأعراس في الخارج في الأحياء

الشعبية / ظلّت قائمة حتى بعد الثورة ،أما حنان فقد شعرت بالفخر لأنّ نبيل قدّمها على أنها زوجته.

و من يدري ماذا صوّر لها خيالها لحظتها و أيّ وهم حلّق في سماء قلبها!

* * *

غادر نبيل المحكمة وتأهّب لركوب سيارته عندما سمع أحدهم يناديه.

التفت صوب الصوت فإذا جلال الباجي ومعه رشيد بن عيسى زميلاه المحاميان التونسيان،يشيران له أن ينتظر.

سرّ كثيرا لرؤيتهما. أصرّا على دعوته لشرب فنجان قهوة فلم يجد بدا من الموافقة.

اتصل بحنان وأخبرها أنّه سيتأخر.

و جلس الثلاثة في مقهى يقابل المحكمة وقد طفحت ملامحهم بالسرور. بدا جلال أسمن قليلا من آخر مرة رآه فيها نبيل. كان ذلك في الجزائر منذ أشهر، خلال أحد المؤتمرات. أما رشيد فقد أطلق اللحية وتكاثر الشعر الأبيض في مفرقيه بينما في وسط رأسه لمعة أنذرت بصلع آت لا محالة، ومع ذلك بدا شديد الوسامة.

عانق جلال نبيل بقوة وهو يطبطب على كتفه برفق.

- أهلا بك. كيف حالك يا ماتر. والله اشتقنا لك.

و دار بين الأصدقاء حديث عن أحوال البلدين والربيع العربي وتناقشوا في قضية القانون الجديد للمحامين. ثم أخبر جلال نبيل بأنه رزق بطفل ثالث.

وقال نبيل:

- في لقائنا الأخير قلت لي أنك لا تحبها وها أنت تنجب منها ابنك الثالث!

و قال جلال مبديا استغرابه:

- ما بك؟ لو كنا لا ننجب سوى ممّن نحب لما أثقلنا كاهل الأرض بهذا العدد من البشر.

و نظر نبيل إلى رشيد متسائلا:

- و أنت كيف حالك؟ آخر مرة التقينا كنت لا تزال حبيس ذلك الحب الايطالي الجميل.

و لم يجبه رشيد ولكن جلال هز رأسه وقال:

- و ما يزال.

وقال نبيل:

لم أسمع أبدا عن حب عاش كل هذا الزمن.تستحق أن تدخل ‹جينيس› العشق يا صاحبي.

ولعل رشيد تهرّب من الإجابة فقد أمسك بساعد نبيل بلطف كأنّما ليطلب منه أن يتريث ثم نادى النادل وطلب للثلاثة قهوة وشيشة.

كان نبيل على علم بحكاية رشيد الذي وقع بشكل جنوني في حب فتاة ايطالية لا يتعدى عمرها العشرين، التقى بها في القنطاوي خلال الصيف ولكن حين قامت الثورة اختفت الفتاة فجأة دون أن تترك أيّ أثر، ولم تعد أبدا، فأصيب بصدمة كبيرة وأغرق نفسه في الشرب والسهر وطلّق زوجته وأهمل أطفاله وهام على وجهه كالمجنون يهذي بالفتاة في كل مكان ثم بصعوبة استطاع أن يتجاوز الأزمة ويلم شمل عائلته. ركّز في مهنته والتزم بالصلاة وداوم على الذهاب إلى المسجد لكن القصة أثّرت على حياته بشكل كبير وعلى مهنته، وظل معارفه وأقرباؤه لا يرون فيه سوى رشيد السكّير البوهيمي العاشق، ويتجاهلون ما أصبح عليه من ورع واستقامة.

اذكروا محاسن موتاكم!

الناس عادة لا يذكر ون الأحياء بخير فكيف الأموات؟

وخطرت لنبيل ذكرى عمار السّكارجي، جارهم بالطقطاقية، كهل ابتلي بشرب الخمر فلا يُرى إلّا مخمورا، مترنّحا، متسكّعا ليل نهار. ثم مرت السنوات وتاب واستقام وحج البيت وأصبح من شيوخ الحيّ،

يستشيره الناس في أمور الدين والدنيا، ولكن ظل لقب «السّكارجي» لصيقا به وعندما يذكر يقال / عمار السّكارجي رحمه الله /

إنّ الألقاب تلتصق بأصحابها كالوشم. خاصة السيّئ منها.

وإنّ أقسى ما يمكن أن يفعله ماضي المرء هو أن يفسد حاضره وربما مستقبله أيضا.

ولم يكرّر نبيل السؤال وشعر بالخجل لأنه سأل عن الأمر وكان أجدر ألاّ يفعل. لم لم يحترم حق زميله في النسيان؟ في الدول التي تحترم الإنسان لكل شخص حق في النسيان يكفله له القانون بحيث لا يحق لأحد أن يذكر آخر بأزمة أخلاقية مرّ بها في ماضيه أو جنحة ارتكبها، ويحق رفع قضية ضد من يفعل.

هكذا يمكننا أن نجعل الآخرين ينسون لكن كيف نحن ننسى؟

إنّ صعوبة النسيان تعود إلى أنّ الإحساس يسكن الفكرة والفكرة تسكن الدماغ.الفكرة المجرّدة من كل إحساس ضعيفة، فاقدة للقوة. ولكي نستطيع النسيان علينا أن نعرّي الفكرة من الإحساس فتفقدها قوّتها تماما ونسلبها روحها.

و قال جلال كأنما ليغيّر وجهة الحوار ويرفع الحرج عن زميله:

- وأنت أيها العزاب المتعنّت متى سنحضر حفلة عرسك؟

- لم أعثر بعد على امرأة تقنعني بالزواج.

- تقنعك؟ لا...لا.. الزواج لا يؤخذ هكذا.عليك أن تتزوج أوّلا ثم بعد ذلك ستجد متسعا من العمر لتقتنع بـ.. .

وقاطعه نبيل ضاحكا:

-. .إيه... بأنني ارتكبت خطأ فادحا.

وقال جلال:

- يقال إنّ أحد الفلاسفة، نسيت اسمه، نصح ابنه بالزواج فإن ضفر بامرأة صالحة عاش سعيدا وإلاّ عاش فيلسوفا.

قال رشيد هازئا وهو يغمز نبيل بطرف عينه:

- الآن فقط فهمنا سرّ تفلسف الماتر جلال.

- لا. لا.. زوجتي امرأة صالحة.. أنا أخذت برأي ديستويفسكي. قال «إنّ أفضل طريقة لنسيان امرأة تحبها هي أن تتزوّجها»

و ضحك الأصدقاء وقال نبيل:

- كيف الأحوال هنا. هل الأمور على ما يرام؟

- الحمد لله. الأوضاع شبه مستقرة.

وسأل رشيد نبيل:

- أنت لم تأت إلى سوسة منذ ما قبل الثورة. كيف وجدت المدينة؟

- جميلة كالعادة غير أنيّ لاحظت تكاثر شيئين: القمامة

والمجا نين.

وقال رشيد مفسّرا:

- امممم. ..القمامة أمر سيء لأنّ من المفروض أن الثورة تجمع كل أنواع القمامات بما فيها البشرية. أما الجنون فأمر عادي. .بل هو من أهم نتائج الثورات الشعبية.

و ضحك جلال ضحكة خفيفة، وقال:

- القوا بالثورة إلى الشارع يتلقّفها المجانين.

و لم يوقف نوبة الضحك سوى النادل حين وقف على رؤوسهم ينتظر طلباتهم.

وعندما قاموا مغادرين، صاح جلال فجأة وهو يصفع جبينه بيده:

- يا ربي. . نسيت الأمر تماما. كنت وعدت الحكومة بأن نخرج مع الأولاد هذه الليلة.

وقال له جلال بمرحه المعهود:

- كان الله في عونك. تنتظرك في البيت غارة جو...زية!

* * *

وافترقوا.

ولم يلتق نبيل بعدها جلال الباجي ولا رشيد بن عيسى مع أنهما طلبا منه البقاء على اتصال لكي يمضوا معا وقتا أطول، وتجنّب المرور بالأماكن التي قد يتواجدان بها بالمدينة لكي يستفرد في اليومين الباقيين بحوائه وجنّته.

في الطريق إلى الفندق توقف عند بائع فاكهة واشترى التفاح الأحمر..

وتذكر نكتة توفيق وضحك في سره.

* * *

مرّت الأيام الخمس كالحلم.

وقبل أن يعودا إلى سوق أهراس بعد ظهر آخر يوم، قرّر الحبيبان قضاء الصباح في البحر.

كان الطقس رائعا،الشمس متألّقة والبحر يبدو على بعد أمتار من الفندق منبسطا، هادئا، يترقّب بشوق أجسادا سترتمي في حضنه. كان بعض السيّاح المبكّرين قد أخذوا أماكنهم تحت الشماسي الملوّنة. لم يكن المكان مزدحما كعادته في سنوات ما قبل الثورة فقد تراجع النشاط السياحي قليلا وساد نوع من التخوّف من عدم الاستقرار وغياب الأمن، ورغم ذلك كان بعض الأوفياء للمكان

حاضرون.

قرب الشاطئ، أمسك نبيل بيد حنان وحاول جرّها بلطف نحو الماء وهي تتمنّع ضاحكة. كانت تلتفت يمنة ويسرة، تجوب بعينيها الشاطئ بسرعة وحذر ثم تسكب نظرتها من جديد في عيني نبيل.

قال وقد خمّن ما يدور برأسها:

- لا تهتمي حبيبتي. انظري. هنا لا أحد يهتم لأحد. أنا معك. أتخافين وأنا معك؟

إنها تخاف. نعم.

كيف يمكن أن يمتزج الشعور بالحب بالشعور بالخوف؟ الخوف. هذا ما تشعر به نحو الاثنين: البحر ونبيل. كيف يمكن أن يمتزج العشق بالخوف؟

دائما تزامن عشقها للبحر مع خوفها منه، منذ سن طفولتها الأولى، عاشت بعيدة عنه لكن في الصباحات الباكرة الباردة من أيام الربيع حين تفتح النافذة، كان يتهيأ لها سماع صوت البواخر ورفرفة النورس وغناء البحارة قبل الإبحار.

لعلها سمكة سقطت خطأ في البرّ ولم تعرف طريق العودة إلى الماء.

وقال نبيل وهو يلف خصرها بذراعه ويتقدم بها نحو الماء:

- تعالي..لا تخجلي. . لا أحد يعرف بأنك لا تجيدين السباحة.

و قالت حنان وهي تلتصق به:

- البحر يعرف.

احترم رغبتها ولم يجبرها على الغطس وجلسا على الرمل قريبا من الماء وقال نبيل وهو يحتضنها برفق:

- سأنشغل كثيرا في الأشهر القادمة وربما لن نلتقي قبل وقت طويل. تعالي نقول كلاما نشهد البحر عليه.

قالت:

- أنت تعرف. لغتي بسيطة ولا أملك قوة البيان مثلك.

- قولي أي شيء يخطر على لسانك الآن. أي كلام له علاقة بالبحر وسأفعل نفس الشيء.

- قل أنت أولا.

- امممم. اسمعي.. . أحبك. أحبك ضِعف ما يحمل هذا الكوكب من ماء.

وراحت حنان تفكّر فيما ستقوله ثم ضحكت ومالت برأسها على كتفه وقالت:

أحبك أكثر مما يحب السمك الماء.

وضحكا وضحك البحر.

ماذا لو...؟

«تبدين أصغر وأجمل؟!»

عبارة لاحقتها من كل زميلات العمل، وحتى من الزملاء، عبارة ترشح فضولا لكشف سرّ ما. لكن حنان تكتفي بالابتسام ولا تقول شيئا. بينما بداخلها صوت يهمس «إنّه الحب»

ذلك الذي لا يصنع المعجزات لأنّه هو المعجزة.

ذلك الذي لا يجعل الشمس تشرق في السماء بل في الصدور، مانحا البشر قدرة عجيبة على ارتكاب الحماقات بمنتهى العقل.

في الواقع وجود نبيل في حياة حنان حوّلها إلى امرأة مكتملة، مشعّة، لديها إحساس عال بأنوثتها وبجمالها وبجسدها ومنحها سببا رائعا لكي تعتني بنفسها. لم تحب جسدها بالشكل الكبير إلاّ حين نشب الحب بينها وبين نبيل. رأت كم أنّه يشتهيها فاشتهت وجودها. اكتشفت جسدها بعينيه وكأنّها تراه لأول مرّة. انتهى زمن حشر ساقيها في جينز قديم باهت الزرقة، ودسّ نصفها الأعلى في قميص فضفاض، حريريّ صيفا، صوفيّ شتاء، انتهى زمن رفع شعرها

الأسود الكثيف، دون كثير اهتمام، على شكل ذيل حصان. نفضت الغبار عن فساتينها وأحذيتها ذات الكعوب العالية، اقتنت مراهم التجاعيد ومواد الزينة والاكسسورات. عاد إلى الحياة شغفها بالفن والموسيقى. وعشقت جسدها، فصارت تعامله باحترام وتقديس وتحملُ روحها فيه كما تحمل أميرة ثرية حقيبة يد مرصّعة باللؤلؤ بعدما كانت، سابقا، تعامله كما يعامل تلميذ مهمل حقيبته المدرسية.

* * *

هل حقا كان يكفيها الإحساس بوجوده في حياتها كما قالت لنوال؟

هل كان يكفيها أن يضمّهما نفس المكان ونفس الزمان؟

أن تقفو خطواتها خطواته وترتسم فوق نفس التراب الذي تلامسه قدماه ؟

هل حقا؟

كم كانت كاذبة و هي لم تستطع أبدا أن تكتفي منه!

و في كل مرة يطول صمته ويتعمّق غيابه تحسّ حنان بالخوف وبالضياع. يطوّقها شعور بالغربة والأشياء البسيطة التي طالما غمرتها بالفرح تصبح بلا طعم ولا لون ولا شكل. يفقد جميع من حولها هويّاتهم. يصبحون أشخاصا بلا ملامح.

عبثا كانت تحاول أن تبدو امرأة متفهّمة راقية ومتحضّرة!

تحاول إخفاء رغبتها في امتلاكه وغيرتها من النساء اللّواتي يدرن في فلكه. كان يحدّثها عنهن أحيانا. عن رسائل تصله،عن نظرات وابتسامات ذات مغزى. عن نساء هائمات به.

هل كان يحكي لها مغامراته لكي يثير غيرتها؟ هل يعتقد فعلا أنّها لا تهتم ولا تستاء؟

كانت تتصنّع الابتسام وعدم الاكتراث بينما تعصف بقلبها الهواجس، تبتسم بثقة بينما تراها تلك اليد، تمتد، وتشعل في صدرها فتيل الغيرة.

غيرة تفتّت قلبها حين تتخيّله مع أخرى، تجلس قبالته، في كافتيريا في مدينة بعيدة أو في مكتبه، على نفس المقعد حيث تجلس حين تزروه. لعله معها الآن. إنّهما يتحدثان ويضحكان، عيناها تتفرّسان في وجهه، صوته يهدهد سمعها، جسدها يرتعش لرنين ضحكته. ربما هي جميلة وفاتنة وفي نفس سنّه أو أصغر منه. هل أحبت أيضا تلك الندبة الصغيرة فوق حاجبه؟

هل انتبهتْ للنعيم الذي يبدأ من فتحة قميصه؟
مؤلم أن يحدّث رجل امرأةً تعشقه عن امرأة أخرى.
ولكن نبيل لا يدرك أنّه يسبب لها الألم، ولا يتعمّد أن يسبب لها الألم. ببساطة لقد اعتاد أن يفضي لها بجنونه ونزواته ومغامراته.

صحيح أحيانا يشعر بمتعة حين يلمح للحظة توقّد الغيرة في حدقتيها ولكنه لم يفكّر أنهّ يؤذيها.

(أتدرون يا شباب؟.. إنّ أروع امرأة في حياة الرجل هي صاحبته لأنه يستطيع أن يحدّثها بكل شيء دون الشعور بالخوف أو بالذنب) لم ينس هذا القول لبوّاب الإقامة الجامعية بعنابة الذي كان يحب أن يسرد مغامرات شبابه لنبيل وأصدقائه حين يجلسون معه في أمسيات نهاية السنة، ينتظرون صدور النتائج النهائية.

مؤلم أن يحدّث الرجلُ امرأة تعشقه عن امرأة أخرى ولو كانت مجرّد طيف عابر كالبرق في سماء قلبه. لكن كانت حنان تتقبّل الأمر، على مضض، وتحاول إقناع نفسها بأنّ أفضل طريقة لأسر عواطف حبيبها هي بمنحه فسحة من الحرية مع أنّ الخوف من فقدان حبه كان يقتلها في اليوم ألف مرة.

بعض الهوى هشّ، سريع العطب، لا يصمد طويلا بين مطرقة الغيرة وسندان حبّ الامتلاك.

الضغط يولّد الفرار.

وكم من حب كبير فرّ هاربا بجلده من جحيم الغيرة.

وكانت حنان ذكية كفاية لكي تفهم بأنّ حبيبها متردّد ولم يحسم بعد أمر زواجهما فقد قال لها يوما:

- أشعر بالذنب لأني سحبتك معي داخل علاقة لا نعرف نهايتها.

وقالت بنبرة حزينة:

- لا. يا نبيل. ليس عليك أن تشعر بالذنب.

وفي سرّها قالت «حبي لك لا دخلَ لك فيه. لستَ مسئولا عنه ولا يعنيك.إنّه يعنيني وحدي. تماما مثل موتي»

* * *

قبل أن تبدأ إجراءات القضية، كان يونس قد أعاد لحنان مجوهراتها وثيابها بل وأرسل وفدا من عائلتها وأعيان المدينة ومعهم أمام مسجد ليترجّوها أن تعود إليه.

ورفضت.

ولم يزده ذلك إلا حقدا عليها وكرها لنفسه. طلبها الطلاق قسم ظهره، ورفضها له مرات ومرات أتى على الباقي من كرامة وكبرياء.

و شعرت حنان بالارتياح كون المشكلة حلّت وانزاح عن كاهلها همّ كبير لولا أن فكرة وخزتها وأثارت في رأسها زوبعة عنيفة.

كانت ساهرة تحاول ضبط جدول بتواريخ لمواعيد استقبال أولياء

التلاميذ ذوي النتائج الضعيفة أو الذين يعانون من سلوكات غريبة، عندما انتبهت أنّه فات على موعد الدورة أربعة أيام.

وصعقت.

ماذا لو. ....؟

صحيح أنّها لم تنجب من يونس لكن مسألة عقمها غير واردة، فقد أجهضت مرّتين.

و تساءلت لمن ستحكي عن هذه المصيبة؟ مجرد حضور الفكرة أمر متعب بل قاتل

! حتى نوال التي تحبها ستصاب بصدمة.

غريبة كرة الصداقة.

قد تعتقد أنك محاط بالأصدقاء، ولكن يحدث أن تقع في ورطة وينهشك الخوف بأنيابه وتبحث حولك ولا تعثر على أحد، تبحث عمّن يشاركك سرا خطيرا أو يحمل عنك هما ثقيلا ولكن تلتفت لا تعثر على أحد!

يمكن لحنان أن تتنبأ بردّة فعل الجميع. أمها سيغمى عليها سيرتفع لديها مستوى السكر وقد تموت في الحال ،ستتسبب في قتلها وتقضي بقية عمرها أسيرة الإحساس بالذنب. فريد؟ لن يتوانى عن ذبحها كشاة مجربة دون أن يرفّ له جفن.

يمكنها أن تتنبأ بردّة فعل الجميع.

الوحيدة التي سوف تتلقّى الخبر ببرود هي سعاد. سوف تقول لها: حياتك ملكك افعلي بها ما تشائين. وسوف تقترح عليها أن تجهض أو ربما ستدعوها إلى باريس.

لعله مجرّد تأخير.غدا ستجري التحاليل. عليها أن تهدأ الآن، لا جدوى من الانجراف وراء الخيالات والتهيّؤات ولكن ...ماذا لو...؟ كيف تتصرّف؟ أين ستفرّ؟ هل تنتحر؟

تفضّل الانتحار على أن تضع نبيل أمام الأمر الواقع أو تفرض نفسها عليه.

طريقة خسيسة بشعة أن تحمل المرأة من رجل ثم تجبره على الزواج بها.

ومرت بخاطرها حكايات نساء يائسات، وقعن في مآزق وضيّق عليهن المجتمع، فمضين نحو الموت عن سبق إصرار. تعرف أنّ للانتحار طرق كثيرة وقرأت أنّ الغطس في الماء أسرع طريقة وأقلّها ألما.

لكن لا بحر في طاغست.

البحر بعيد وفي الطريق إليه قد تغيّر رأيها وتقرّر الاستمرار في لعبة الحياة وتحمّل الألم.

الانتحار مثل الأكلات السريعة.. يستهلك ساخنا.

* * *

استولى عليها الخوف وسدّ عليها القلق كل المنافذ. اتصلت بنوال أكثر من مرة. وفي كل مرة تكون على وشك أن تبوح لها بهواجسها ثم تحجم. ثم فكّرت أنهّ مجرّد هاجس، ولا ينبغي أن تشغل به بال صديقتها.

و أخيرا قررت أن تمر بالمكتب وتحكي مع نبيل عن مخاوفها.

ولم يكن هناك. «الأستاذ مسافر ولن يعود قبل أسبوعّ قالت لها السكرتيرة وهي تتفرّس في وجهها وتقيس قامتها بعينين غارقتين في كحل رخيص.. قالت حنان طيب، سأعود مرة أخرى وابتسمت بنفاق وقد شعرت بأنّها تكره تلك السكرتيرة جدا.

الوقوف خارج المكان

«صافيةً أراكِ يا حبيبتي كأنما كبرتِ خارجَ الزمنْ
وحينما التقينا يا حبيبتي أيقنتُ أننا مفترقانْ
وأنني سوف أظلُّ واقفاً بلا مكانْ».

صلاح عبد الصبور

انطلق نبيل بسيارته بسرعة جنونية، مغادرا حي مشرق الشمس.

لم تكن نصب عينيه وجهة معيّنة. كان تحت تأثير الصدمة ولم يستوعب ما حصل.

كأنّ تفكيره شلّ تماما.

«قتلت. قتلت. وجدوها مطعونة في شقتها!»

تدق الكلمات رأسه بعنف كضربات مطرقة.

نال منه التعب. والجوع أيضا. لم يكن قد أكل شيئا وحلم بلقاء

مريح مع حنان ينسيه تعب الطريق وموت زكية ودموع سهام.

و لكن..حنان «قتلت. قتلت. وجدوها مطعونة في شقتها!»

لا يدري كم مرّ من وقت قبل أن ينتبه أنّه دار أربع دورات حول نفس الشارع. توقّف أمام أول مقهى قابله. رمى بجسده على كرسي. أشعل سيجارة وطلب قهوة ولكنه رشف منها رشفة واحدة ثم تركها وخرج مسرعا. ماذا سيفعل الآن؟

وقاد راجعا إلى حي مشرق الشمس. ركن السيارة بعيدا عن العمارة هذه المرة. وشعر بأنّ المكان مختلف عنه منذ ساعات، فقد بدا له أنّ كل من في الحيّ يعرفون بقصته مع حنان، وأن نسوة يرقبنه من فتحات الأبواب أو يتلصّصن عليه من الشبابيك والنوافذ. لوهلة شعر بأنه أخطأ بالعودة للمكان ولكن كان لابد من ذلك.

يعود القاتل دائما إلى مسرح الجريمة. هل العاشق أيضا؟

وقصد كشك وردة الجزائرية واستفرد بمحمود وكان من فرط الصدمة قد فاته تفصيل مهم: كيف عرف محمود بأنّه كان يقصد شقة حنان؟

وكأنّ الرجل علم ما يدور في رأس نبيل فقال «كنت مرّة أغادر طبيب الأسنان عندما لمحت السيدة تفتح لك الباب، لكن لا تقلق، كتمت السر ولم أخبر به أحدا» ولم يلق نبيل بالا لما قاله الرجل، وهل يعنيه الآن أن يظهر السرّ أو يختفي؟

وأخبره محمود بأنّ الشرطة استجوبت تقريبا كل سكان العمارة والعمارات المجاورة.

وقال بصوت فيه رنّة حزن:

- كانت امرأة طيبة. الله يرحمها وينتقم من أولاد الحرام.

* * *

الساعة الثامنة وعشر دقائق والمقبرة خالية في ذلك الصباح البارد. أوكل نبيل إلى توفيق مهمة الاهتمام بالمكتب دون أن يخبره بوجهته. ارتدى معطف الكشمير الأسود. لفّ حول عنقه شالا من الصوف رماديّ اللون. لم تكن تمطر ولكن الضباب كان كثيفا لدرجة اضطرّته لأن يقترب من القبر أكثر.

الضباب أيضا يحجب الرؤية رغم بياضه.

ووجد القبر في المكان الذي وصفه له محمود.

آه. .كم أنت بخيل أيها الشاهد. كم إنّك غير منصفٍ أبدا:

(المرحومة

حنان بورحيب

إنّا لله وإنّا إليه راجعون)

أهذا كل ما استطعت أن تجود به؟!

اعتصر الحزن قلبه. يفتقدها جدا. أين سيجد الأمان والحنان بعدها؟ كان يجهل أنها متغلغلة في روحه إلى هذا الحد.

هل كان يجب أن تموت لكي يدرك بأنه يحبها كل هذا الحب؟ هل كان يجب أن تضيع لكي يكتمل الحب؟

أحقا لابد من نهاية مأساوية لقصص الحب لكي تعلق في سياج الذاكرة؟

النهايات السعيدة لا تغري بالبقاء.

و لكن ماذا حصل بالضبط؟. من فعل بها ذلك؟ هل فعلها يونس؟ هل هو فريد المريض.. من؟ من؟

شعر بنزف بداخله.

آه. .يا لمرارة الظلم!

ظلمٌ أن تموت امرأة مثل حنان بهذه الطريقة الهمجية.

ظلمٌ أنّه لم يحمها.

* * *

وراح يفكّر بالذين أحبّهم ورحلوا بعيدا وراء الشمس متأبّطين فرحه وملامحه.

كم من الموت يلزمك كي تشبعي نهمك أيتها الحياة؟

كم من الذبح يلزمك كي تروي عطشك للدماء؟

وفي لحظة تهيأ له أنّ الموت «مايسترو» حاذق، أستاذ متمكّن يقود الجوقة البشرية. يدير عزف الحياة. ينظّم إيقاعها. يحدّد سلّمها. يتلاعب بالأمزجة والأخيلة والمشاعر والكلّ، خائفا متوجّسا. يرصد حركاته. نزوله وصعوده. انفعالاته وتشنّجاته. يكفي أن يشير بعصاه الرفيعة يمينا أو شمالا ليسقط من مسرح الجوقة عازف وينقطع من قلب الحياة لحن، ولكنه ليس حاذقا بما فيه الكفاية. ألا يحدث أن يأتي بحركة نشاز فيختلّ نظام الفرقة ويتذبذب العزف؟

يعتدل نبيل في وقفته. يقرأ الفاتحة ثم يمسح بكفيّه على وجهه.

يفتّت قلبه شعور بالذنب. لم يستطع حمايتها مع أنه أوهمها بذلك. لم يهتم كما يجب حين أخبرته أنّ أخاها هدّدها بالقتل إذا لم تترك الشقة وتعود إلى بيت العائلة لتكون تحت عينيه وسمعه. كيف لم يقلق وقد روت له تورطه مع مجموعة تتاجر بالمخدرات وكيف أنّه نجا من السجن بأعجوبة أكثر من مرة. يا الهي! هل سلّم حبيبته بيديه لأخيها الذي كان مشروع داعشيّ؟ لم يهتم أيضا عندما وصفت له الحالة الهستيرية التي كان عليها زوجها يونس يوم جمع نفرا من

أعيان المدينة ومعهم إمام مسجد الحي وجاءها مترجّيا إيّاها أن تعود إليه وقابلته بالرفض.

لم يفكر جديا في حاجتها له كما فكّر في حاجته لك. يا له من أناني.

كأنّه متورّط في قتلها بطريقة أو بأخرى.

ليس القتل عملا فرديا. . أبدا. .

كل قاتل، في أيّ مكان من العالم، يقف معه قتلة آخرون أو شخص واحد على الأقل يكون شريكا في الجريمة، بائع الأسلحة أو بائع الوهم أو مروّج المخدّرات أو المتاجر بالدين أو عامل محطة البنزين حين يزوّد سيارة القاتل بالوقود، أو سائق التاكسي الذي يقلّه إلى مكان الضحية أو..أو..

وشعر أنّه لا يختلف كثيرا عن القاتل، بل لعلّه هو.

رفع كفّيه إلى السماء لكي يدعو لها بدعاء يليق فلم يجد على شفتيه سوى تمتمة ردّدها وهو يلتفت حوله كأنما خشي أن يسمعه أحد غير الله.

دائما شعر بأنّ الله يفهمه ويعذره أما البشر فيحاكمون.

ربما مرّ وقت طويل وهو هناك متسمّر أمام القبر.

كان الضباب قد انقشع وظهرت الشمس. مشرقة جدا.

كلما كان الضباب كثيفا كانت الشمس التي تظهر بعده أكثر إشراقا.

بعض الأحياء بدؤوا يتوافدون على الموتى / أو الموتى على الأحياء؟/

جال بنظره إلى اليمين ثم إلى اليسار وعلى مدّ بصره توزّعت قبور، متفاوتة الأحجام. كأنها بثور على خد الأرض.

ترى أيّ قبر هو قبر أمه؟ هذا الذي بجانب قبر حنان وقد غزته الأعشاب الطفيلية، أم الآخر هناك وفوقه إناء قصديري به ماء؟ أول مرة يدخل فيها مقبرة. كان يوم دفن زكريا. وضعت زكية إناءً قديما فوق القبر وملأته بالماء وعندما سألها نبيل لم فعلت ذلك قالت له كلّما حطّت العصافير هنا لتروي عطشها تضاعفت حسنات أخيك.

لا يدري إذا كانت محض خرافة أم حقيقة لكنه أحبّ الله أكثر لحظتها .

ما أكرمك يا الله وأنت تحرص على أن تضاعف لنا الحسنات وبكل الطرق .

على يمين قبر حنان لمح نبيل قبرا صغيرا مُحيت الحروف عن شاهده تماما بحيث يمكن أن نكتب فوقه أيّ اسم آخر وأيّ تاريخ.

فكّر أنه سيحتاج شاهدا بحجم المقبرة أو بحجم المدينة كلها كي يكتب عن أمه، أو عن حبيبته حنان أو عن زكريا.

و ظل لساعات واقفا في المكان بينما ذاكرته خارجه تماما.

* * *

كان نبيل في المدرسة في الثانوية يوم مقتل زكريا، وجاء والده وطلب من المدير إخراجه من حجرة الدرس ثم في الطريق قال له: زكريا مات. نظر نبيل في وجه والده فلم يتبيّن أيّ تعبير. كان وجهه أبيضَ تماما، كشاهد قبر محيت حروفه.

و لم يستوعب كيف يموت أخيه هكذا ببساطة. ولماذا يموت؟ لقد كان شابا وطيبا ورائعا.

كان حين يعود من الثكنة يجلس معه ويحكي له عن الحياة هناك، في أقصى الصحراء. قال له ذات مرّة بأنّه يتدرّب على استعمال السلاح لكي يستطيع أن يحمي الوطن من الأعداء.

ولكن الوطن أعاده في صندوق حديديّ. بلا حياة.

كانت السيارة تطوي الطريق وزكريا ورفقاء ثلاث يتحرّقون للوصول، يهدّئون من روع الشوق ويحلمون بدفء ديارهم وحب أهاليهم. ولكن، كان الموت ينتظرهم بكل وحشية. في حاجز أمنيّ مزيف، أوقف

إرهابيون التاكسي ومرروا خنجرا حادا على الأعناق، وأطلقوا سراح سائق التاكسي، أكيد لكي يروي الحادثة.

عندما طلب ضابط الشرطة من والد نبيل التقدّم ليرى ابنه لآخر مرة، دسّ نبيل جسده بين الحشد ووقف بجانب أبيه وبحلق داخل الصندوق وقلبه يخفق بشدة.

كان زكريا ممدّدا، ملفوفا في كفن شوّهت بياضه بقع حمراء قانية.

لم يستطع نبيل التوقّف عن البكاء. كانت الأسئلة تنهمر في رأسه كحبّات البرد. لم يهضم الأمر ولم يفهم الذي حدث. لم لا يتحرّك زكريا؟ لم لا يحاول فتح عينيه؟ ألن يقوم أبدا؟ كان يغيب لأسابيع ثم يعود لكي يعلمه العزف على القيثارة. بسببه أحبّ نبيل الموسيقى وتفتق حسّه للفن وللجمال. لا يجب أن يموت. سوف ينزع الكفن. ثم ينهض قائما يدرّبه على عزف الأغنية:

((يالرايح وين مسافر تروح تعيا وتوليّ

شحال ندمو لعباد الغافلين قبلك وقبلي))

كل الذين يسافرون قد يعودون يوما، ولكن زكريا ذهب إلى غير رجعة. يومها شعر نبيل بالحنق لأنّ زكريا لم يحاول فتح عينيه. لأنه ترك الموت يهزمه. وشعر بالحنق على أبيه لأنه لم يمهل زكريا بعض الوقت بل سارع بحمله ووضعه في حفرة.

حفرة ضيّقة، مظلمة، موحشة، باردة!

غريب كيف تجتمع أهوالٌ أربع في ثلاثة حروف: ق ب ر!

في فرنسا، في العصور الوسطى، كان يتم الدفع لشخص ليظلّ بجانب القبر لأيام ممسكا بحبل موصول بجرس، وإذا ما أفاق الميت فكل ما عليه فعله هو شدّ الحبل فيرنّ الجرس!

يا للاعتقاد السخيف! فكّر نبيل.

لم يفهم أبدا لمَ كان والده يرتبك كلما جاء ذكر قبر أمه. كلما ألحّ عليه بالسؤال يقول: لقد دفنّاها على يمين المقبرة قريبا من السور وبعد أيام سقطت أمطار غزيرة، غزيرة جدا، كالطوفان، جرفت التربة وطمست القبر تماما.

عهدي بك كريما أيها المطر، كيف تواطأت مع الموت كي لا تترك لي شيئا من أمي، ولا حتى شاهدا أبكي عنده أو تربة أعفّر بها وجه الحنين؟

وكأنّ للشواهد جدوى!

هل سيختلف الأمر لو أنك غيّرت شاهد قبر بآخر؟ أو أنّك كتبت على الشاهد أيّ هراء؟

يحتفظ نبيل في ذاكرته بما قرأه يوما عن الأورفية[3]. لقد كانوا يضعون على قبور الموتى لوحات ترشد أرواحهم إلى كيفية الوصول إلى العالم الآخر، عالم الخلود. مازال يحفظ سطورا من إحدى اللوحات:

«ستجد ينبوعاً آخر بجانب بحيرة الذكرى

ينبثق منه ماء بارد وأمامه حرّاس

فقل: أنا ابن الأرض والسماء ذات النجوم

لكن سلالتنا من السماء وحدها وأنتم بذلك عالمون»

ورفع نبيل رأسه إلى السماء..

سلالتنا من السماء! يا للفكرة! كم تخفّف من رهبة الموت! ثم خفض رأسه وحدّق في القبور من جديد. ترى أي قبر هو قبرك يا أمي؟ مؤسف ألا أجد لك قبرا أزوره. الذين لا قبور لهم لا يزورهم أحد يا أمي. لا يزورهم أهاليهم في الأعياد. ليس لهم شواهد يكتب عليها تاريخ ميلادهم. الذين لا قبور لهم لا تنبت الزهور البرية فوق ترابهم. لا توضع لهم الورود في المناسبات ولا تقرأ الفاتحة على أرواحهم.

---

3 الأورفية هي ديانة يونانية باطنية قديمة مؤسسها هو أورفيوس الشاعر الذي وضع التراتيل الأورفية وقد ترجمها للانكليزية توماس تايلور، وجوهر العقيدة هو ثلاث نقاط رئيسية، (الإيمان بالتقمص، الإيمان بأسطورة أورفيوس، السرية وممارسة الحياة الزاهدة).

لا يصلهم الدعاء بأن تكون قبورهم كرياض الجنة.

لا تمر بهم الشمس ولا المطر.

لكن هل حقا يوجد أحد داخل هذه الحفر؟

هل الراحلون داخل القبور أم أنهم هنا بدواخلنا. ينامون في القلب ويتوسّدون الذاكرة؟ لماذا نزور القبور إذا وليست سوى علب من طين نضع فيها هياكل من طين. نردم فيها من غادروا كي نوهم أُنفسنا بأنهم انفصلوا عنا، ،أو انفصلنا عنهم؟

كلها شظايا أسئلة في رأس نبيل لا يملك لها جوابا كما لا يملك في ألبوم الذاكرة صورة لأمه، إطلاقا.

أخبرنه والده أنّ عمره كان ثلاث سنوات حين ماتت. مرضٌ مجهول أودى بحياتها في ظرف قصير.

هذا ما قاله له الجميع أيضا، الجيران وبعض الأقارب.

المرأة التي وعى على وجودها كانت تقاسمهم العيش في منزلهم المتواضع في حيّ الطقطاقية. تطبخ الأكل وتغسل الثياب.و تنظف البيت. وفي الليل تدخل الغرفة كي تنام مع والده دون أن تقبّله أو تتمنّى له ليلةً سعيدة أو تسأله إذا أنجز واجبه المدرسي, قبلةِ ما قبل النوم وحكاية ما قبل النوم وكوب الحليب الساخن الـ ما قبل النوم، وأمور كثيرة أخرى بين الابن والأم ما عرفها سوى في لقطات الأفلام

المدبلجة، أو من حكايات رفاقه في المدرسة. .أمي قصّت شعري، أمي أخفت عن أبي عقب السيجارة الذي وجدته في محفظتي، أمي وقفت بيني وبين والدي حين همّ بصفعي فجاءت الصفعة على ذراعها.

أمي فعلت، أمي قالت..

و لا يجد ما يقوله فيتمتم «يمّا زكية تصنع كعكا شهيا جدا!» لم تكن يمّا زكية امرأة قاسية. لا. لم تكن صورةً لزوجة الأب الشريرة كما في القصص والحكايات ولكنها لم تكن حنونا أيضا.

كانت امرأة خالية من المشاعر أو ربما لا تجيد إظهارها. طلب منه والده أن يناديها يمّا زكية. لم يفهم نبيل السبب، ربما هي من أمرت بذلك. وجد أخاه الأكبر منه زكريا، أيضا يناديها كذلك.

لم تكن تسيء معاملتهما لكن لم يشعر نبيل بحرارة حبها يوما، أبدا.

في يومٍ شكا لأبيه ما يقوله رفاق الحيّ من إنّ أمه ليست أمه فقال له (هي مِثل أمك) وظلّت «مثل» مغروسة في قلب نبيل كشوكة وكلما حاول التقرّب من زوجة أبيه ولو قليلا وجد الـ (مِثْل) تقف بينه وبينها.

ما أقسى أن تعيش في بيت فيه أمّ مثل أمك!

(لقد ماتت والدتك في سن مبكرة..) قال له والده. وحين سأله لماذا وكان في سنّ غليان الأسئلة قال له (لأنّ لكل أجلٍ كتاب يا ابني.

إنّه أمر الله. .سوف تفهم حين تكبر).

طبعا لم يفهم نبيل معنى «أجلٍ» ولا معنى «كتاب» إنّما ارتاح لفكرة إنه سيفهم حين يكبر. لكن في يوم وهو في حوش المنزل يلعب بالكرة، فكّر في قول والده» إنه أمر الله «ورفع رأسه عاليا إلى السماء وسأل الله . .لمَ رحلت أمي وهي بعد صغيرة، يا الله؟

الله! كان يراه كبيرا جدا. بحجم السماء.

ومع أنّه دائما يسمع إمام المسجد يردّد أن الله موجود في كل مكان، إلا أنّ نبيل كلما أراد سؤال الله أو دعاءه رفع رأسه إلى السماء.

ولكن الله لم يجبه.

خمّن أنّه مشغول بأمور أهمّ لكي يجيب على سؤال صبي صغير مثله. ورغم ذلك أحبّ الله جدا ودائما آمن بأنّ مشكله البشر ليست مع الله. مطلقا. وبمرور السنين ازداد إيمانا بأنّ المشكلة ليست مع الله إنّما مع من يقفون بين البشر وبين الله، بحجة أنهم سيدلّونهم على الطريق إليه بينما هم في الحقيقة، يحجبون عنهم الطريق الصحيح إليه ويحجبونه عنهم.

وما هو الطريق الصحيح؟ إنّه فيك. الله ليس في المسجد!

سأدخل الجنة لأني أحب الله. ولأن الله يحب رجال القانون. ألسنا نقيم عدالته على الأرض؟

«سأنبئ الله عن كل متاعبي حين أعود إلى الديار».

قالها زنجي روحاني ومضى، وكذلك أقول.

* * *

لم يستوعب نبيل أن لا أحد رأى جثمان أمه أو حضر جنازتها أو حتى يأتي على ذكرها.

لو أنّ ظهور الفتاة التي ستصبح أخته لم يأت متأخرا جدا، لو أنه أولى أهمية الرسائل في بريده الالكتروني أهمية لكان وفّر على قلبه كمّا كبيرا من الحزن والألم.

لو أنّ الحقيقة ظهرت في وقتها، بأيّ شكل، بأيّة طريقة، من أيّ باب كان، كما يظهر شاهد العيان في آخر لحظة، قبل أن ينطق القاضي بحكم الإعدام على شخص بريء، فتُفتح القضية، وتُخلط الأوراق لكي يعاد فرزها من جديد..

ولكن الحياة ليست رواية يستطيع مؤلفها أن يتلاعب بالأحداث فيقدّم ويؤخّر كما تمليه عليه المخيّلة.

كل الحوادث تظهر في الوقت المناسب الذي كثيرا ما يكون غير مناسب.

في بعض الأحيان، كانت تمر بخياله فكرة ظريفة: كيف سيجعل أمه تبدو لو أنه استطاع رسمها؟

ربما كان جعل لها عيني حنان وبشرة نفيسة، وصوت زكيّة حين تكون منسجمة وتناديه «وليدي»، وكان سيجعلها بقامة أستاذة الفرنسية في الثانوي، وشعر زميلته / نسي اسمها / كانت تجلس أمامه في القسم، وحين تلقي بشعرها الأسود الكثيف الطويل اللامع إلى الخلف، ويسقط فوق طاولته، يبحر في لجّته ويتوه عن نفسه وينسى الأستاذ والسبورة والدرس.

لو استطاع رسمها هل سيجعلها جميلة جدا؟ كاملة ومثالية؟ أهو شرط أن تكون جميلة وكاملة؟

كنت ستحب أمك حتى ولو كانت شرّيرة أو أبشع امرأة على وجه الأرض.

«أرسم لأتذكر وجه أمي» يقول شاغال.

كيف يمكن لنبيل أن يتذكّر وجه أمه وهو ليس جيدا في الرسم مثل شاغال؟

كان من المفروض أن ترسمها الذاكرة فلماذا لا يعثر لهاِ فيها على أثر؟

متى بالضبط تبدأ العمل هذه الذاكرة اللعينة؟

في أيّة مرحلة من العمر؟

متى بالضبط تبدأ لعبة القفز بالحبلين: حبل التذكّر وحبل النسيان؟

وهل تبدأ صغيرة ثم تكبر؟

وإذا لم يكن كذلك فلمَاذا لا تسجّل الأحداث منذ البداية؟ منذ الصرخة الأولى مثلا؟

يرى أوغسطين أنّه حين تنطبع صورة شيء ما في الذاكرة من الضروري أن يسبقها حضور الشيء عينه، الذي عنه تخرج الصورة وتبقى في الذاكرة. أين حضور والدة نبيل إذا في ذاكرته، قبل أن ترحل؟ أين صور السنوات الثلاث تلك؟ وهي تلقمه ثديها، أو تغيّر ثيابه. أو تهدهده أو تغنّي له كي أنام؟

أكيد أنها قبّلته أيضا. أكثر من مرة.

أين طعم حليبها في فمه؟ أين اختفى كلّ ذلك؟

مؤسفٌ ألاّ تحتفظ هذه الذاكرة المشلولة بأهم مشاهد العمر. مشهد الميلاد ولحظات الوجود الأولى.

ما جدواها إذا؟

الذاكرة صديق خائن، يخوننا مع التذكّر ومع النسيان.

في الجامعة حاول نبيل كتابة الشعر. أدمن في فترة قصيرة قراءة دواوين الشعراء وكان يؤمن بأنّهم الأقدر على رسم أمّهاتهم. الشعراء

يرفعون أمّهاتهم فوق الغياب وفوق الموت.

«أحنّ إلى خبز أمي، وقهوة أمي»

لكنه ليس محظوظا مثل درويش. إنّه لا يجد في ذاكرته مذاق خبز أمه ولا قهوة أمه. الحنين يكون لأمرٍ عاشه المرء وعايشه، تذوّقه ولامسه وأحسّ به. الحنين يكون لذلك الحضور الذي تنطبع صورته في الذاكرة. .كيف نحنّ لما لم يحضر؟

لماذا إذا يجرفه حنين ما؟ في كل يوم، ليلا ونهارا؟

لعله الشوق إلى شهوره الرّحمية.. شهور الدّعة والسّلام قبل أن تقرّر الحياة قذفه وسط موجها المجنون.

جلس مرة ليكتب قصيدة، بدأها بـ «أحنّ إلى. ... أمي.»

ولكنه لم يجد ما يسدّ به النقاط فملأ ثلاث صفحات بـ «أحنّ إلى أمي».

طبعا لم تكن قصيدة. لأن نبيل لم يكن شاعرا.

بعد ذلك خربش بضعة محاولات لم ترق له ثم تخلّى عن الأمر تماما. لا تحلم بأن تصبح شاعرا إذا لم تكن قد وُلدتَ شاعرا. .قال لنفسه.

* * *

لا يعرف عن أمه سوى اسمها «فاطمة بن حامد» وليس له منها سوى صورة وفردة قرط في علبة خشبية مستطيلة الشكل بها نقوش محفورة عميقا. لا تظهر أمه في الصورة بشكل واضح. كأنّها أخذت لهم قبل عيد الأضحى بأيام لأنّ والده يظهر واقفا في فناء البيت إلى جانب خروف ربط بحبل إلى شجرة العنب، والده يرتدي ببنطلونا بنّيا وكنزة صوفية مخطّطة باللونين الأحمر والأبيض وينتعل حذاءً أسود وغير بعيد تقف أمه، مولية ظهرها للمصوّر، تحمل نبيل على كتفها الأيسر بينما يقف زكريا، ملتصقا بها، متشبّثا «بقندورتها» البيضاء الموشاة بورود صغيرة باللون الأزرق.

صورة رثة، حوافها متآكلة، تجمع عائلة بسيطة من العوام، لعل عمّه الهادي التقطها لهم قبل أن يهاجر نحو أمريكا. أخبره أباه أنّ له عمّ وحيد،غادر الجزائر وانقطعت أخباره.

فردة القرط عبارة عن قطعة لويز/ وهي عملة فرنسية تعود إلى القرن التاسع عشر، يظهر على أحد وجهيها رأس الإمبراطور لويس نابليون الثالث..من هنا جاء اسمها/ محاطة بزخرفة من الذهب، وتتدلّى منها ثلاث سلاسل رفيعة جدا. يحتفظ بها نبيل في الخزانة في البيت القديم بالطقطاقية.

الحقيقة أنّ نساء كثيرات من كل الطبقات، مفتونات «بالويز»، خاصة «المحزمة»: يتفنّن صنّاع المجوهرات في تزيين القطع النقدية بالزخرفة والألوان ثم تشبك كل قطعة بأختها حتى تشكل حزاما أو

«محّزمة» تحدد سعره نوعية وقطع العملات وعيارها الذي صنعت منه، فيكون باهظا أحيانا.

ذات مرة، رافق نبيل توفيق إلى مجوهراتي بعنابة. ليتسلّم محزمة زوجته.

وقال توفيق:

- أنظر، حماقة النساء! يتحزّمن برأس نابليون!من يبحث عن أثر المستعمر ولا يجده عليه أن يتحسّس خصور الجميلات في أعراسنا.

- أنت أيضا أحمق.

قال توفيق وكأنّه سيبكي:

- ماذا أفعل يا صديقي إذا كانت في كل مرة تهدّدني بالنوم في غرفة أخرى إذا لم أشترها لها!

ثم أضاف ضاحكا:

- فلتبق آثار الاستعمار،الأهم أن تنام زوجتي في حضني.

لماذا فردة واحدة من القرط؟

وأين الفردة الأخرى؟

حين استفسر نبيل يوما عن الأمر قال والده مهمهما (لا أدري.. لا

أدري.. هذا كل ما وجدته في الصندوق بعد رحيلها)

و ولّى وجهه بعيدا، هاربا من نظرته.

* * *

ترك نبيل المقبرة واكتنفه شعور بالهزيمة. كأنّه فارس مهزوم مثخن بالجراح.

أيتها الآهلة بالعدم. لعلك تشعرين بالوحدة وبالبرد مثلي. لعلك تعانين من التخمة أو تشعرين بالغيرة من قطعة الأرض هناك تحت سفح جبل «المايدة». أرض خضراء تمرح فيها الحملان، وتحلّق فوقها الحمائم.

قدرك أن تكوني مقبرة. إنك مثلي تماما محكومة بقدرك.

من بمقدوره أن يفوز حين يكون غريمه القدر؟

يا لبؤس سكّانك وهم لا يستطيعون تسليتك أو تسلية بعضهم البعض بالحديث أو تبادل النكات أو حتى البكاء.

ماذا لو أنّ حنان وأمي تستطيعان التواصل الآن؟

أخبري أمي يا حبيبتي بأنّي حزين وضائع مثل قطٍ صغير وحيد مبلل بالمطر في زقاق مظلم.

أخبريها أنّك الوحيدة التي أحببت حقا بعدها.

وخطا مبتعدا، منكس الرأس، شاحب الوجه، في رأسه ألف سؤال وفي خياله ألف صورة، لكن فجأة برقت في ذهنه صورة معيّنة، شديدة الوضوح. وطفا على سطح ذاكرته شريط ذلك اليوم من سنة 1992.

كانوا مجتمعين أمام التلفزيون يتابعون مراسم دفن الرئيس محمد بوضياف، «سي الطيب الوطني» كما كان يلقّب أثناء الثورة. الغليان السياسي في أوجّه والأحداث تتابعت قبل ذلك اليوم بشكل مثير ومفزع. الجبهة الإسلامية للإنقاذ تفوز بالانتخابات الرئاسية للدور الأول في 1991. يتم توقيف المسار الانتخابي. تُلغى النتائج. يستقيل الرئيس الشاذلي بن جديد أو يُضطر للاستقالة. يُستقدم محمد بوضياف من المغرب لكي يتولّى رئاسة المجلس الأعلى للدولة في 11 جانفي.. وتتم تصفيته يوم 29 جوان 1992 كان في زيارة لمدينة عنابة و كان مبرمجا له تفقد عدد من المشاريع، من بينها مركّب الحجار و معرض لإبداعات الشباب تم تنظيمه بقصر الثقافة. وتوجّه بعدها إلى دار الثقافة، وسط المدينة ، و جلس إلى المنصة يلقي خطابا، أمام قاعة مليئة بإطارات الدولة وممثلي المجتمع المدني، وكاميرات التلفزيون الجزائري. كان محاطا في الجهة الخلفية من وراء الستار بعدد من عناصر الحراسة الشخصية، يرتدي معظمهم لباسا أزرق.

وفي لحظة من عمر ذلك العمر، وبالضبط عندما بلغ في خطابه عبارة «... الدول التي سبقتنا.. بماذا سبقتنا.. بالعلم.. والإسلام...»، دوّى

صوت قنبلة يدوية منبعثا من الجهة الشمالية للمنصة، تلتها طلقات رشاش موجهة لرأس الرئيس ليلفظ أنفاسه الأخيرة على متن طائرة هليكوبتر متّجه به إلى مستشفى عين النعجة العسكري في العاصمة.

لم يستطع نبيل نسيان ذلك اليوم أبدا.

عمّقت الفاجعة إحساسه بالظلم وأصبحت لفظة ثقافة في عقله مقرونة بلفظة رصاصة. كأنّ «الثاء» في ثقافة هي «ثاء» الثقب الذي تحدثه رصاصة غادرة في جسدٍ مسالم، كأنّ الرصاصة التي غدرت بالرئيس قد استقرّت في صدر الثقافة.

كان معتادا، حين يزور عنابة أن يقضي رفقة الأصدقاء بعض الوقت في قصر الثقافة، ولكن منذ تلك الحادثة أقسم ألا تطأ قدماه القصر أبدا، خاصة بعد أن سُمّي باسم محمد بوضياف، وتأكّد له أنّ الشعوب البائسة تقتل رموزها وتتسبّب في فناء قادتها ثم تسعى إلى تخليدهم بإطلاق أسمائهم على الشوارع والمستشفيات. .و المتاحف والسجون! وقال كان يجب أن يتحوّل المكان إلى قصرٍ للبكاء!

* * *

في ذلك اليوم سأل زكريا عن الفرق بين الذين يدفنون في «العالية» والذين يدفنون في المقابر الشعبية، وأجابه والده باستهزاء مرّ:

- الذين في «العالية» يا ابني مثل ركّاب درجة أولى أو نزلاء الخمسة نجوم.

العالية..

يعود سرّ تسمية المقبرة إلى أنّ امرأة جزائرية صالحة ومعطاء، اسمها الكامل العالية حمزة، منحت في سنة 1928 قطعة أرض من أملاكها الكثيرة إلى السلطات الفرنسية بغرض جعلها مقبرة لدفن موتى المسلمين فلا يضطرون لدفع الإتاوات والضرائب من أجل الدفن، وأصبحت بعد الاستقلال مقبرة رسمية يدفن فيها الزعماء والرؤساء الجزائريون. ولدت العالية سنة 1886 بمنطقة سور الغزلان ولاية البويرة لأبوين ثريين جدا، محمد بوترعة وفاطمة شعبان. كانت تعرف بثرائها الكبير وعملها للخير وكفالتها لليتيم. عملت في مجال التجارة لتتوسع ثروتها إلى جانب عملها كمسئولة في مدرسة لتدريس البنات في سيدي عيسى المجاورة لمنطقتها أنشأتها بمالها الخاص قصد تدريس وكفالة البنات اليتيمات. تزوجت من كرميش محمد، مدرس من بوسعادة كان يشتغل في العاصمة ولم تنجب. كانت ثروتها تعد بالمليارات وكانت لها أراض واسعة في منطقتها وفي العاصمة الجزائر وفي سيدي عيسى وعين بسام وكانت تلبس كل أنواع الحلي حتى أنها عندما تدخل الأعراس تخطف الأنظار من جميع الحضور بسبب ألبستها وحليها ومجوهراتها الفاخرة وعند المواسم تقيم الولائم والذبائح للفقراء والمساكين وتكسيهم وتطعمهم وكانت تحظى باحترام جميع الناس وكلهم يثنون على فضلها وأخلاقها وكرمها حيث أنها كانت بحق أما حنونا للفقراء والمساكين وكان بيتها مقصدا لكل من لا مأوى ولا مسكن ولا مطعم له وهي نموذج للمرأة الجزائرية الحنونة والمعطاءة ولكن لم تحظ هذه المرأة بالرعاية الكافية من

المسئولين والمؤرخين الذين تجاهلوها أو تناسوها عن قصد أو غير قصد يقال أنّها ماتت مسمومة سنة 1932 من أجل السيطرة على أملاكها ودفنت في مسقط رأسها ب سور الغزلان ولا أحد يعرف حجم أملاكها وأين ذهبت ومن قام بالاستحواذ عليها وهذا الأمر بقي سرا إلى اليوم. يومها قال زكريا «إنّ الذين يرقدون في المقابر الشعبية يرقدون بسلام!»

هل عنيت ذلك حقا يا أخي؟

هل حنان ترقد بسلام؟

و أين ترقد والدتنا؟ وهل بسلام؟

يبدو أن لا أحد يرقد بسلام. ولا في أيّة مقبرة.

* * *

في المساء اتّصل بتوفيق. أخبره أنّه لن يحضر إلى المكتب وطلب منه أن يعتذر لكل من يتّصل. كانت به رغبة في المرور بالبيت القديم بالطقطاقية. قرر أن يبيت الليلة هناك.

لم يكن البيت بعيدا عن المقبرة. المقبرة نفسها تدعى «الطقطاقية»، على اسم الحيّ.

من أخذ التسمية من الآخر؟

أمه ليست هنا. كلّ المكان مقبرة.

فحزنا جميلا.

«الموت يتطلّع إلينا من النافذة»

كل هذه الملائكة يا الله

ولا ينتهي الشرّ فوق الأرض؟!

قرّر نبيل المبيت في البيت القديم وجاءه محمّلا بحنينه، مسحوبا من ذاكرته وهو ما يعطي للمكان معنى.

لا يأخذ المكان قيمته من ذاته، كحيّز محدودٍ جغرافيا أو كشكلٍ هندسيٍّ مشبّع بالاسمنت وبالحديد، بل من الذين أقاموا فيه، وأثّثوه بتجاربهم وبمشاعرهم وبفرحهم وبآلامهم.

يتحوّل المكان إلى ماض، يظلّ يقفز أمام أعيننا كأرنب، ولا يبق معنا سواه حين ينتهي كل شيء.

المستقبل؟ ماذا في المستقبل سوى الموت؟ المستقبل الحقيقي هو الماضي والغريب أنّنا نهتم بالمستقبل الذي هو الموت ولا نهتم بالماضي وهو الحياة؟

البقاء للماضي. لأنه لا يمضي نهائيا.

ألسنا نصطدم به مرارا في طريقنا إلى المستقبل؟

الطقطاقية. بتضاريسها الصعبة وطرقاتها التي تشبه المتاهة. أُزقّة ضيقة ملتوية تمتد صعودا كأنها جبل، نحو منازل متراصة لم يمنعها التفاوت الطبقي من شدّ بعضها بعضا كأنما لتعطي درسا في التكافل للمتكبرين المتعصّبين.

«لو أن بن لادن اختبأ هنا ما عثر عليه أحد!»

ذلك ما قاله أحد سكان الحي يوما عن الطقطاقية.

صعد نبيل الدرجات الإسمنتية المؤدية إلى البيت. فتح الباب الحديدي. أزّ أزيزا مزعجا أقلق السكون. ربما عليه أن يرمّمه. طلاؤه بهت وظهرت فيه تقرّحات لكثر ما تداولت عليه صفعات الشمس والمطر. من حقّ المكان عليه أن يرمّمه، من حقّ الذكريات. لن يفعل ذلك مخافة اللصوص.لا. فلن يهتم أحد بسرقة بيت قديم، بيت أحلامه لا تغري اللصوص.و كان أجمل حلم فيه هو طموح نبيل بأن يجوب الصحراء مع زكريا.

سنكتب معا سلسلة مصوّرة نسميها «مغامرات الإخوة بن عريف «، كان زكريا يقول له.

في الحوش استقبلته رائحة رطوبة شديدة. وروائح أخرى مميزة.

يعرفها جيّدا. تسكن الذاكرة. كل شيء موجود لكن بلا حياة، شجرة العنب الهرمة التي تتوسط الفناء. المطبخ الصغير. الغرفة الضيقة ذات الطلاء الزيتي الأرجواني التي كان يتقاسمها مع زكريا.

* * *

ملأ دلوا بالماء من خزان حديدي كبيرو سقي الشجرة. وتذكر عقاب الحب. في الحقيقة، كلما ينظر في المرآة ويرى الندبة، يرى وجه أبيه المظلم ويكاد يسمعه وهو يصرخ. لو كانت أمه موجودة لما سمحت بعقابه بقسوة على أمر تافه. قرأ نبيل في اعترافات أوغسطين كيف إنه (قد يستحسن حكم فطن ضربي لأني لعبت صغيرا بالكرة الطائرة وتأخرت في تلقّن العلوم التي قد تدفعني كبيرا إلى ما هو أقبح من تلك الألعاب الصبيانية). وبحسب أوغسطين فإنّ توافه الكبار هامة في نظرهم وأعمال الصغار توافه تستوجب العقاب.

أدار نبيل النور في الغرفة الأولى وهو يتساءل من أولى فعلا بالضرب، الصغار أم الكبار؟

أكبر غرف البيت حيث كانوا يستقبلون الضيوف ويسهرون في ليالي الأعياد. بها كنبتان خشبيتان، عليهما مطرحتان من صوف وطاولة خشبية مستديرة وكرسيان. وتراءى له المشهد: والده يجلس على حافة الكنبة التي تقابل الباب، واضعا رجلا على رجل، أمامه

مائدة صغيرة ،عليها فنجان قهوة وفي يده سيجارة يدخنها ببطء شديد. وزكية في ركن من الغرفة أو في المطبخ أو الحوش تفعل شيئا. لا يدري ما هو بالضبط. دائما تكون مشغولة بفعل شيء.لا يتذكر أبدا أنّه رآها مستلقية أو مسترخية بلا عمل.ثم دخل الغرفة الثانية، كان يتقاسمها مع زكريا. في الغرفة سريران متقابلان ودولاب من الخشب بلون داكن ثبتت على بابه الأيمن مرآة. في الركن كرسيان وطاولة صغيرة، كان الأخوان يراجعان عليها دروسهما. سطح الطاولة مكوّن من ثلاثة قطع من الخشب ملساء مستطيلة الشكل، مثبّتة إلى بعضها البعض من الأسفل بخشبتين رقيقتين. الدولاب ولا يتعدى طوله مترا ونصف المتر كان للثياب والكتب. مازال فيه بعض كتب القانون وبضعة روايات وجرائد قديمة وكتيّبات سلفية كان زكريا قد اقتناها من بعض الرفاق حين فكّر يوما أن يتبع التيار السلفي قبل ان يعدل عن رأيه.

فوق الدولاب شمعدانان من نحاس وإطار به صورة لزكريا ببزّته العسكرية الخضراء وحذائه «الرونجارس» الضخم. يبدو في الصورة مبتسما ،رافعا يده اليسرى، مشكّلا بالسبابة وبالوسطى علامة النصر. ها هو يدخل مبتسما، محاولا إخفاء إجهاده، فيمطره نبيل بالأسئلة (هل ستبقى طويلا هذه المرة؟ هل ستعلّمني اللعب على القيثارة؟ هل الحذاء بمقاس قدمك؟ أليس كبيرا؟ يبدو أكبر من قدمك. هل يستحق الوطن كل هذا العناء؟)

وبكل هدوء يجيبه زكريا، على السؤال الأخير فقط، متجاهلا كل أسئلته الأخرى (نعم يستحق).

ثم اختفى المشهد واختفت ابتسامة زكريا ورأى نبيل رجالا يحملون نعشا ويخرجون به من الباب وزكية تزغرد، وجارات يزغردن ويذرفن الدمع في آن واحد.. احتار يومها كيف يفسّر تصرّفهنّ..ثم علم لما كبر أنّ النسوة يزغردن على الشهيد لإيمانهن بأنّه يرحل محمولا على أكتاف الملائكة إلى الجنة.

بعثر نبيل محتوى الدولاب، يبحث عن العلبة الخشبية ثم أعاد الثياب داخل الخزانة بسرعة ودون ترتيب وكأنما ليوقف انهمار الذكريات.

و احتفظ بالقرط والصورة معه. ودار بذهنه أنّ الموتى بالتأكيد لا يدرون أيّة حالة مزرية يتركون عليها الأحياء ولا كم هؤلاء بؤساء من بعدهم وتائهون وحزانى، وإلاّ كانوا أخذوا معهم ثيابهم وصورهم وكلماتهم وكل ما يمكن أن يذكّر بهم. ربما يكون النسيان أسرع والألم أخفّ.

في هذه الغرفة خلى ذات يوم بزميلته في الثانوية. كان قد وقع في حبّها وكان يرغب في الاستفراد بها ولقائها في مكان بعيد عن الثانوية وعن الرفاق. تبادلا الرسائل لأشهر وفي يوم تشجّع وقال لها تعالي للبيت لكي نراجع معا للامتحان وجاءت. لم يصدّق أنها

استجابت لطلبه بتلك السهولة. شعر بأنّه محظوظ خاصة أنّه لم يكن قد خطّط للمراجعة بل للفوز بقبلته الأولى. ولم يراجعا شيئا. تحدثا قليلا ثم غالب خجله وتجاسر وأمسك بيدها بين يديه ثم رفع من مستوى الجرأة، فاحتضنها وقبّل شفتيها وقال لها وهي في حضنه «ليت الزمن يتوقف في هذه اللحظة». لابد أنّه قرأ العبارة في كتاب أو شاهدها في لقطة من فيلم.

وطبعا، الزمن لم يتوقف، ولكن زكيّة وقفت بالباب مصدومة من المنظر ويدها على فمها، وقد تبعثرت محتويات القفّة عند قدميها. كانت قد دخلت دون أن يحسّا بها، كانت معتادة حين تخرج للتسوق أن تقضي نصف اليوم خارجا لكن سوء حظه أعادها إلى البيت قبل الوقت. وفتحت الباب وفاجأتهما معا. غادرت زميلته مسرعة مضطربة أشد الاضطراب، بينما لم يستطع نبيل رفع عينيه في وجه زكية ولكنها كانت رائعة فعلا واكتفت بتوبيخه.

قالت له بنات الناس لسن لعبة يا وليدي. ولم تخبر أباه.

لم ينس لها ذلك أبدا.

* * *

كانت قد بدأت تمطر.

استشعر بعض الأنس في صوت المطر ومرّ بخاطره ذلك اليوم بمدينة سوسة، كان وحنان راجعين إلى الفندق سيرا على الأقدام

وفجأة أخذت تمطر بغزارة، مطر مفاجئ، بارد، يشعرك وكأنّ السماء تعلن به عن غيرتها من البحر.

و قالت له حنان وهي تحتمي بحضنه:

- حبيبي. .هل تعرف أنّ قطرات المطر بإمكانها أن تخرق الأرض عميقا وتحدث فيها خرابا ولكنها لا تفعل؟

وهزّ نبيل رأسه بأنّه لا يعرف.

قالت:

- أتدري لماذا؟

وهزّ رأسه مرة أخرى مشيرا بأنّه لا يدري.

قالت:

- لأنّه مع كل قطرة مطر ينزل ملاك. .جدّتي كانت تقول ذلك.

يا الله! كل هذه الملائكة ولا ينتهي الشر فوق الأرض!

قام وفتح النافذة فصدمت وجهه نسمة باردة. كان الحيّ خاليا تماما، هادئا ومظلما، كأنّما تسكنه الأشباح.

كل شيء هاجع بصمت. لا قدم تدبّ ولا صوت يرتفع ،عدا نباح كلب، من بعيد. وبدا له المنظر جميلا، أجمل منه في النهار،و استغرب كيف أثار فيه الليل الشعور بالأمان مع أنّ المفروض الأمان

مصدره النور وليس الظلام.

و عزا ذلك الشعور إلى خلوّ المكان من البشر.

مدّ يده وفتح كفّيه ليلتقط حبّات المطر. وتذكّر فكرة هيراقليطس عن الموت والخلود وكيف أنَّ النفس بعد الفناء تتحوّل إلى ماء..

و شعر بأنّ روح حنان ممزوجة بقطرات المطر. لعلها الآن من مكان ما تبصره وترى كم هو بائس وحزين. روح مثل روحها لابد أن تعود إلى الأرض. على أيّة هيئة كانت، وحب مثل حبها لابد أن يمتزج بدموع السماء ويسقي الأرض لكي تحبل به التربة في كل ربيع. وخلص أنّه لن يستطيع نسيانها، وأنّه سيكون بحاجة إلى ذاكرة جديدة يعلّمها من جديد كيف تتهجّى النساء.

لكي ننسى نتذكّر أولا، ربما لذلك نحن لا ننسى فعلا وبشكل نهائي.

لقد كان يشعر بأنّ ما بينه وبين حنان سيكون خالدا، بأيّة طريقة.

و ها هو الموت يقلّد حبهما وسام الأبدية!

أليس غريبا أنّ الموت هو من يمنح المشاعر ديمومتها، وليس الحياة؟

مسح بكفيه على وجهه فاختلط ماء المطر بماء عينيه، وفي وهلة بدت له الحياة مسرحية هزلية يستمتع بها الجمهور ويصفّق بينما

الممثلون وحدهم يدركون بأنّ نهايتها ستكون مأساوية.

و كان بحاجة لأن يمحو وحشة المكان ويخفّف من حدّة اشتياقه لحبيبته وأسفه عليها وحنقه على نفسه وعلى العالم فتمدّد على السرير. تدثّر جيدا وقد أحسّ بالبرد يتسلّل إلى عظامه ثم فتح «اعترافات القديس أوغسطين» وراح يقرأ:

((لماذا يقتل الإنسان أخاه الإنسان؟؟؟ إنه يقتله إذا هام بزوجته! أو طمع في عقاره أو أختلس شيئاً من ماله لأجل معيشته أو هاجمه قاصداً الإساءة إليه، ولكن أيمكن أن يرتكب أحد الناس جريمة قتل بلا سبب ولمجرد السرور فقط بالقتل؟ من يصدق هذا؟ إن الإنسان الشرير والجائر الذي يقتل عندما يثور بوحشية من تلقاء نفسه إنما يفعل ذلك لأنه نشأ شريراً عاطل اليد والفكر، ولكن إلي أي مدي يندفع في طريق؟؟ لا شك أنه إذا هاجم مدينة من المدن فإن شروره لن تقف إلا إذا أستولي عليها واغتصب مُلكها وغنم كل ما فيها وشعر بأنه قد أصبح بعيداً عن سطوة القوانين وارتباكات الضرورات العائلية وإحساس الشعور بالمسئولية، لذلك فإن (كاتلين) لم يحب شروره ولكنه ارتكبها لسبب أخر.

الحسد يجعل الإنسان يحسد أخاه الإنسان لأجل الفخر. .

الغضب يولد في النفس الرغبة في الانتقام. .

الخوف يجعل الإنسان قلقاً بسبب كل أمر مفاجئ غير. . .

الحزن يكون بسبب الحسرة علي ما فُقد مع ما فيه من بهجة..((

آه. .و أيّة حسرة تعادل حسرتي على فقدك يا حبيبتي. .

* * *

وفجأة.

فُتح باب الغرفة ووقف فيه شاب وسيم، ضخم الجسم ،طويل القامة. شعره أشقر مجعّد يغطّي كتفيه. لحيته كثيفة تصل حتى فتحة الجبّة البيضاء.كان يرتدي فوق الجبة برنسا أسود مطرّزا بحرير مذهّب ويحمل بيمناه ريشة طويلة كأنّها من ريش النعام ويحتضن تحت إبطه مجلدا ضخما مصفرّ الحواف. نظر الشاب إلي نبيل ثم أدار رأسه نحو النافذة حيث كانت تقف امرأة طويلة وناعمة الملامح. . وخمّن نبيل أنّه أوغسطين. نعم. أغوسطين ووالدته القديسة مونيكا! أخذا يهمهمان ثم احتدم بينهما النقاش، وسمع نبيل الأم تردّد بنبرة مستوية «ابحث عن معنى الحياة يا بنيّ وستدرك معنى الموت.» ورأى القديس يلتفت نحوه كأنّه يريد رأيه لكن حنان وقفت بينهما وقالت بصوت باك: لماذا قتلتني يا حبيبي؟ وكان يريد أن يقول لها أنه لم يفعل وأنه يحبها، لكنه لم يجد القدرة على الكلام وكأنّ حلقه مسدود بالحجارة. كانت حنان ترتدي «قندورة» أمه كما في الصورة الرثةّ وتمد له يدها بقطعة كعك ومدّ يده كي يأخذ الكعك. ولكن

كلما يمدّ يده تبتعد حنان باتّجاه النافذة وهي تقول «انظر.. أنظر الموت يتطلّع إلينا من النافذة.»

مدّ يده أكثر وقلبه يخفق والرغبة في الكعك تلهب صدره. ارتطمت يده بحافة السرير.

و أفاق مرعوبا.و تذكّر أنّه منذ أيام كان يتصفّح النت، وتوقّف أمام لوحة «الموت يتطلّع إلينا من النافذة» للرسام التشيكي ياروسلاف بانوسكا. لوحة مرعبة وكئيبة تمثّل كائنا غريبا مفرط الطول، محني الظهر يطلّ من نافذة صغيرة في الجدار.

كان حلقه جافا والعرق يصّبب من كامل جسده. قام وفتح النافذة ونظر من خلالها إلى الخارج.

ولم ير سوى الظلام جاثما على أنفاس الحيّ.

عدوّي.. أيها المجهول

سوف لن أقبل اعتذارك الذي سوفِ لن تقدّمه

أيها الموت.

كان نبيل متأكدا أنّهم سيرسلون في طلبه لذا لم يستغرب حين وصله استدعاء من الشرطة. طبيعي أن يحقّقوا معه. أكيد وجدوا رقم هاتفه ضمن أرقام المتصلين بحنان وأكيد علموا بعلاقته بها وتردّده على شقّتها مع أنّ ذلك كان بشكلٍ متباعد.

لا شيء يُخفى في هذه المدينة.

من حسن الحظ أنّ الجرائد لم تنشر في غيابه وفي صفحتها الأولى «مانشيت» كبير «محام يقتل عشيقته في شقتها بحي مشرق الشمس ويفرّ!». كانت الألسن ستجد ما تلوكه لمدة طويلة.

بعض أعوان الشرطة يعرفون نبيل. المحقّق محسن العابدي نفسه، كان على سابق معرفة به. التقيا لمرات عديدة في المحكمة. رجل نزيه

ومحترم، معروف بتفانيه وكفاءته في كشف المجرمين.

- أنت أكيد تعرف لم استدعيناك يا أستاذ.

- نعم لقد عرفت بالأمر منذ يومين. كنت مسافرا.

- أخبرتنا السكرتيرة بذلك.

أوضح نبيل للمحقق أنّه لم يكن بينه وبين الضحية شيء رسمي لكن كانا سيتزوجان بعد عودته من السفر. وطلب من المحقق أن يخبرنه عن ملابسات القضية.. وهو يفرك يديه ويزدرد ريقه من شدّة انفعاله.

قال محسن:

- اتصل بنا أحد الجيران وقال بأنه لاحظ دما متسرّبا من تحت باب شقة الضحية. أسرعنا إلى هناك وقمنا بكسر الباب والدخول للشقة، ووجدنا الضحية في الرواق، في بركة من دم. لم نعثر على أية بصمات ولا الخنجر الذي طعنت به ولا أي شيء أبدا يعطينا خيطا للبحث. لم يكن الباب مكسورا ولم يتلف أي شيء في الشقة أو يسرق. يبدو أن الضحية فتحت للقاتل أو أنّه يملك مفتاح الشقة.

- هل من مشبه بهم؟

- لا. والدة الضحية تتّهم طليقها يونس. أخبرتنا أنّه كان يضايقها ويحوم حول بيتها، لكننا استجوبناه وتأكّد لنا وجوده خارج المدينة في يوم الجريمة.

قال محسن ذلك وفتح درجا أمامه وأخرج ظرفا كبيرا وضعه على المكتب. أدرك نبيل أنّها صورٌ يريده أن يراها وهمّ بفتح الظرف، لكنّ بحركة سريعة، واضع نبيل كفّه فوق الظرف، وقال برجاء:

-لا تفعل.. من فضلك.

قال محسن «كما تريد» ثم أعاد الظرف إلى الدرج.

كيف سيرى صورها وهي مقتولة؟. .مستحيل. لن يتحمّل ذلك. لن يستطيع التحكّم في مشاعره. يريد أن يحتفظ بآخر صورة لها في قلبه. إلى الأبد: كانت تودعه عند باب المكتب. يداها الجميلتان تعبثان بشعره ثم تنزلان لتمسحا على وجهه ثم تتوقّفا عند رقبته. تعدّلا ربطة عنقه. ركّزت نظرتها في عينيه. حدّقت فيهما بعمق. كانت مبتسمة وسألته إذا كان سيحبها دائما وقال لها «إلى الأبد، إلى الأبد» وصوت بداخله يشدّ أذنه... أيها المنافق أنت تعلم أن لا شيء أبدي. لا شيء أبدي.

سأله محسن إذا كان يشك بأحد، فأومأ أن لا.

و قال محسن: فكّر جيدا قد يكون أحدهم قتلها انتقاما منك.

وسألنه إذا كان له أعداء. ولم يكن قد سئل هذا السؤال قبل ذلك أبدا، ولا مرة ولا من أحد.

* * *

هل لك أعداء؟غادر نبيل مركز الشرطة والسؤال يرنّ في أذنه.

هل لك أعداء يا نبيل؟

مسح ذاكرته فلم يعثر على اسم أو وجه لعدو.

صحيح لم يكن دائما على وفاق تام مع بعض الزملاء لكن كانت كلها مناوشات حول مسائل قانونية وكانوا يتفقون في النهاية. لم يعط أمر الأعداء أهمية أبدا. ربما لأنّه لم يعتقد يوما بأن المشكلة تكمن في الأعداء. كان يقول لتوفيق احذر الأصدقاء. الأعداء لن يضرّوك والكراهية لن تسبب أيّ أذى على عكس الحب. أعداؤك مفروغ من أمرهم، إنهم هناك في مكان في دماغك. جهة اليسار أو ربما اليمين. أنت تعرفهم جيدا، بأسمائهم وانتماءاتهم ومواقفهم وآرائهم. يقفون باستعداد كفرقة عسكرية مدرّبة، على أهبة الهجوم في أية لحظة لكن هادئون ومنضبطون ولا يزعجونك حتى إنّك في كثير من الأحيان تمضي في طريقك دون الانتباه لهم. .المشكلة الفعلية هي في الأصدقاء. ينتشرون كالنمل في دماغك، لا تستطيع القبض عليهم كأنهم الزئبق. يراقبون تحرّكاتك وسكناتك والويل لك لو حصل وتصرفت عكس توقّعاتهم، مثلا كأن تكون في لحظة ما نذلا، أو شريرا، أو تظهر عليك طفرة شرّ كالتي بداخل كل إنسان، فتتخلّى عن مثالية اعتادوا عليها فيك. .صدقني لحظتها سينقلبون عليك مائة وثمانين درجة، وستقع في ورطة حقيقة إذ لا تعرف هل تتصرّف معهم بمنطق الأعداء أم بمنطق الأصدقاء؟

عندما عاد نبيل إلى المكتب، كان توفيق هناك يراجع مذكّرة. سأله

- هل من جديد؟

قال

- لا. كل الخيوط تؤدي إلى طريق مسدود: طلبوا مني ألاّ أغادر الوطن. (ربما نكون بحاجتك في التحقيق)قال لي المحقق محسن القاسمي.

ثم أضاف وكأنّه يحدّث نفسه:

- لكني على يقين من أنهم لن يعثروا على القاتل وسوف يحفظون التحقيق ضد مجهول. بعد وقت. وسترى.

* * *

وكما توقع تماما.

اتصل به المحقق محسن بعد أيام وكان في المكتب مع توفيق واثنين من الزملاء يتحاورون في أمر قانوني. قال له محسن بصوت غلّفته الهزيمة «أنا آسف يا أستاذ. . لقد أغلق الملف وقيّدت القضية ضد مجهول.

وما إن ودّع توفيق الزميلين عند باب الخروج حتى انفجر نبيل:

- مهزلة! ألا يكفي أنّ الموت غامض ومجهول لكي يكون المتسبّب فيه أيضا مجهولا؟ أمي ماتت بمرض مجهول! قبرها مجهول! زكريا مات بيد مجهولين والمنحرف الذي قتل حبيبتي مجهول؟!

ثم وقف وضرب بعصبية سطح مكتبه بقبضة يده وصاح:

- ما أتعس الأرواح وهي تحلّق مغادرة دون أن تخبرنا عن هوية قاتليها!

ثم التفت نحو توفيق:

- أتدري؟ لم أتمنّى قتل أحد في حياتي كما تمنيت أن أقتل المجهول! اخنقه بيدي هاتين. هاتين. وأضع جثته النتنة داخل حفرة وأكتب فوق الشاهد: «هنا يتعفّن المجهول». وتعرف؟ سأجعل الناس يزورونه يوميا ويتبوّلون فوق قبره.

و حانت منه نظرة ورأى فوق المكتب جريدة وطنية لذلك اليوم يتوسّط صفحتها الأولى خبر زيارة الرئيس الفرنسي هولاند للجزائر فاشتعل حنقا ودمدم:

- و نطالب فرنسا بالاعتذار؟ على فرنسا أن تعتذر.نعم. لكن من ربّوا المجهول في حضن الوطن أليس عليهم الاعتذار أيضا؟ هاه. .ما رأيك؟ الذين احتكروا الوطن وجعلوه وكرا للمجهول أليس عليهم الاعتذار؟

قال ذلك، وبحركة سريعة تخلّص من ربطة العنق ورماها فوق المكتب، ثم هوى بجسده على الكرسي وهمهم: أغادر الوطن؟ أنا؟ ليس الآن. لكن يوما ما سأرحل. سوف أغادر هذا الوطن المسكين، المحكوم بقدر المجهول.

نعم. قد يفعلها كما فعلها كثيرون، ويهاجر نحو أرض لا يقتل فيها المجهول أبناءها. أرض، على الأقل، القاتل فيها معلوم، والمجرم معروف، له اسمٌ وصورة وبالألوان أيضا، حتى إنك تستطيع البصق على وجهه أو لعنه بأعلى صوتك أو التبوّل على صورته المنشورة في الصحف. لكن قبل ذلك، قد يجعل من مقتل حنان قضية عمره ولن يرتاح ألّا بمعرفة الحقيقة.

و لن يموت قبل ذلك.

لا يموت من يحيا من أجل قضيّة!

كان توفيق يقف صامتا، وينظر بحزن في لوحة معلقة على الجدار خلف المكتب: امرأة معصوبة العينين تحمل بيد ميزانا وفي الأخرى سيفا، وفي أعلى اللوحة نقشت بخط جميل، الآية «و إذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل».

كان يشعر بكثافة المرارة التي في صدر صديقه ولا يدري ماذا يفعل ولا ما يقول.

لم يره منكسرا ومهموما وغاضبا بذلك الشكل أبدا. مرت لحظات صمت ثقيل ثم قال توفيق محاولا التنكيت رغم إدراكه أنّ اللحظة غير مناسبة لكنه لم يجد فكرة أفضل لتلطيف الجو المشحون بالغضب:

- هل تريد آخر نكتة؟ اسمع. محامي يسأل شاهدا: كيف انتهى زواجك الأوّل؟ يقول الشاهد: بالوفاة، فيسأله المحامي: وبوفاة من انتهى الزواج؟

و ضحك توفيق وحاول نبيل أن يضحك فلم يفلح وطاف على وجهه شبح ابتسامة باهتة وقال:

- ظريفة. من ابتكاراتك؟

- لا. .وجدتها في كتاب «فوضى في المحاكم الأمريكية». عليك أن تقرأه. ستكتشف كم هم أغبياء المحامون الأميركيون.

لم يعلّق نبيل بكلمة. لم يكن مستعدا لأيّ حديث. لم تكن حالته تسمح بأن يناقش غباء الأمريكان أو العرب أو أيّ شعب آخر. كان الغضب يصهر صدره كبركان. انقشع الحزن الكثيف ليفسح مكانه للغضب. إنّ غضبه الآن أكبر من حزنه. . غضب متأجّج، نيرانيّ، يغلي بداخله. الغضب من كل شيء حتى من نفسه.

أنا العاشق الغبيّ الذي لم يستطع أن يحمي حبيبته.

(حبيبتي نتحدث لاحقا. أنا في المحكمة الآن (قال لها في آخر

مكالمة بينهما. قالت) وأنا في السجن (و ضحكت. خمّن أنها كانت تقصد سجن حبها له. كانت دائما تقول له إنّه استعبدتها بأمر الحب، ملك قلبها وروحها ولن تتحرّر منه أبدا. في سوسة، حين كانا يقفان في بلكونة الغرفة في الفندق ليلا يراقبان البحر، كانت تضع رأسها على كتفه وتغني له «أقبل أعيش بسجن لو أنت سجّاني». ماذا لو أنها كانت تقصد كونها محاصرة أو مهدّدة من طرف ما؟ كيف لم يفكّر بذلك أبدا.

- نبيل.. ما زالت هذه الرسائل تصلنا منذ مدة. . أليس هذا غريبا؟

- أيّة رسائل؟

- هذا. هنا. أقرأ.

وقرأ توفيق بصوت مرتفع: سليمة بنت فاطمة بن حامد.. من مدينة عنابة تبحث عن أخويها زكريا ونبيل بن عريف. الرجاء الاتصال بالرقم (........)

وقال نبيل:

- هراء. إنّها في بريدي منذ شهور.

- ولم لا تكون مهمة؟

- توقّف رجاء.. هل هذه نكتة أخرى؟ لست مستعدا لتقبّل

جنونك!

- نبيل. اسمعني.. أيمكن أن تكون مجرد رسائل؟ إنّها تصلك منذ شهور على بريدك الخاص وتصل إلى بريد المكتب أيضا. ثم ما المانع لو اتصلت بالرقم. لن تخسر شيئا.

- لم أكن أعرف أنّ خيالك واسع إلى هذه الدرجة.

لكن ظلّ توفيق يلحّ عليه إلى أن أخذ منه وعدا بأن يتّصل بالرقم.

* * *

في تلك الليلة تقلّب نبيل في فراشه ولم يستطع النوم.

و لكي يهرب من أفكاره، أخذ كتاب «الاعترافات» وراح يعيد قراءته من جديد:

((هناك في تاغسطا، المعروفة اليوم بسوق أهراس بالجزائر، أبصر أوغسطينوس النور، في بيت شريف، من أب وثني وأم مسيحية في 13 تشرين الثاني سنة 304. توسّم فيه والداه الخير فأخذا يعدّانه لمستقبل باهر. وهل أضمن للنجاح، في مجتمع روماني ،من العلم والثقافة العالية؟ دخل المدرسة الابتدائية، صغيرا، حتى إذا ما أكمل الثانية عشرة من عمره انتقل إلى معهد شهير في مادورا.

و أخذ الفتى الطريّ العود، الحاد الذكاء، ينهل العلم عن أساتذة

تضلّعوا من أصوله وتمرّسوا به طويلا).. (حتى كانت السنة السادسة عشرة من سنه قاسية جدا، سوف يذكرها طوال حياته بكثير من المرارة والألم.

وعجز والداه عن تأمين سفره إلى قرطاجا لمتابعة دروسه فانفتح أمامه باب اللهو واسعا، ولها بأقدس المحرمات، وتعرف إلى امرأة ،ساكنها واستولدها طفلا سمّاه اديودات. ولم يأبه لنصائح أمه وتوجيهاتها الحكيمة، ف...))

وتمتم نبيل بصوت مكتوم آه يا قدّيس. أيها الملك الصغير. يا ابن الدموع. لك أمّ ولا تأبه لتوجيهاتها!؟

ثم فتح صفحة أخرى، حافتها مطوية. صفحة 44. لابد أنّه قرأها من قبل ووجد فيها أمرا مثيرا. فكرة أو عبارة أو أمرا مسّه في العمق، كانت تلك عادته في القراءة. يطوي حافة الصفحة لكي يعود إليها وكثيرا لا يفعل.

وقرأ:

((اعتاد الناس أن يسمّوا القضاء والمحاماة مهنا شريفة فسعيت جهدي إلى أن أتفوّق في علوم يقاس نجاح أصحابها بنسبة كذبه ونفاقهم. أوآاه من عمى البشر التام الذي أصبح أصحابه به يفاخرون! لقد فقت أقراني في فن الخطابة فتهت كبرا وخيلاء وبقيت أرفع منهم أدبا وتهذيبا، كما تعلم يا إلهي لم أجارهم في أعمال الهزء

والسخرية والتخريب التي تجعل من القائم بها أخا للأبالسة، واحتفظت لنفسي بقسط من الحياء البشري مع ما كنت عليه من القحة، وبرغم معايشتهم، واللذة التي اجنيها من معاشرتهم فقد كنت أشمئزّ من شرورهم الجنونية التي كانوا يستقبلون بها الطلاب الجدد المتردّدين...))

وشعر بالنعاس فاستلقى يطلب النوم، ورأى في الحلم امرأة ترتدي فستانا أبيض حريريا فضفاضا، وشعرها سنابل قمح طويلة خضراء تصل إلى خصرها. عيناها واسعتان جدا تلمعان وفمها مبتسمٌ كالشمس . كانت جميلة كآلهة، وتضوع منها رائحة البخور كالذي يشتمّه في المنزل في صباحات الأعياد وتقول زوجة أبيه زكية «إنها تفعل ذلك كي تطرد العين والشياطين. إنّها أمه!. قالت كلاما لم يفهمه. كأنّه بلغة أخرى. ثم أعطته قطعة حلوى صغيرة. مدّ يدي ليأخذها لكنها، بحركة لطيفة من يدها، أبعدت يده ووضعت الحلوى في فمه.

كانت لذيذة بشكل غير عادي. حتى إنّه عندما أُفاق من النوم في الصباح، تهيأ له أنّ طعما حلوا، لم يتذوّقه من قبل، عالق بحلقه. ترى، هل يحمل الحلم نبوءة ستتحقق في القريب العاجل؟ يشبه حلما رآه من قبل لكنه لا يؤمن بالأحلام وكثيرا ما سخر ممّن يؤمنون بها.

الأحلام إمّا أعمق من أن يفسّرها بشر، أو أتفه من أن يكون لها على أيّ تفسير.

ووجد نفسه يفكّر في الرسائل الالكترونية التي تصله منذ ما يقرب السنة. . في المدرسة كان يدهش معلّميه بخصوبة مخيّلته. كان يملك قدرة عجيبة على ابتداع السيناريوهات حتى إنّ معلم الرسم في الابتدائي كان يلجأ إليه حين يريد أن يضيف شيئا مميّزا لرسم ما.

لابد أن يقطع دابر هذا الشك. إنّ الشك الذي لا يؤدي إلى الحقيقة يؤدي إلى الجنون.

و أخذ الهاتف واتّصل بالرقم.

وكان متأكدا أن لا أحد سيجيب أو أنّ صوتا سيجزره ويؤنبه على الإزعاج.

و لكن، خاب ظنه وجاءه صوت فيه دفء وبراءة، كأنّه لطفلة في العاشرة.

لدي ما أخبرك به قالت ولابد أن نلتقي. عقدت الدهشة لسانه. ماذا تريد منه؟ ولمَ لم تأخذ موعدا وتأتي إلى المكتب؟ وتحوّلت الدهشة إلى شعور آخر لم يعرفه من قبل حين قالت له يجب أن أراك. أنت أخي ولدي الدليل. شيء يخصّ أمّنا لابد أن تراه.

و كانت عند نبيل في يوم الغد، قضية بمحكمة عنابة فقرر أن يلتقي الفتاة. واعدها على اللقاء في ساحة الثورة ما بين الساعة العاشرة والحادية عشرة. كانت قد شرحت له أوصافها: نحيلة معتدلة القامة، بنطلونا بنيا ومعطفا بنيا وحقيبة يد صغيرة سوداء. .

و أوضحت له أنها ستضع قبعة صوف خضراء.

قد يصبحُ البحر يابسة

في حدود العاشرة صباحا دخل نبيل عنابة.

ها هي بونة أمامه. حسناء ارستقراطية. مغرورة، شرسة، لعوب، تسمع في ضحكتها صوت الموج المشاغب.

ليس غريبا أن أطلق عليها الرومان لقب «ريجيوس» ويعني «الملكي».

صباحٌ يليقُ بمغامرة.

و هذه مدينة تحرّض على اقتراف الجنون.

من قال إنّ المدن سواء؟ بعض المدن للعيش وأخرى للمجازفة، وحين تكون على مشارف عنابة وتستقبلك رائحة البحر وفوضى الميناء و«لالاّ بونة»[4] في أعالي التلال، تدرك بأنّه عليك أن تتقن السباحة وسط التماسيح، وأن تجيد الإمساك بأسماك الحلم وإلا لن تحبّك هذه المدينة.

---

4 كنيسة القديس أوغسطين.

مدينة كل ركن فيها، كل شارع، كل معلم يهمس لك.. خفّف الوطء، إنك تقف على أديم أرض تحمل 3000 سنة من التاريخ، وحين تكون بمواجهة الميناء، وكان في القرون الثلاثة الأولى للميلاد يعرف باسم الأفروديسيوم نسبة للإلهة أفروديت، تكاد تراهم، يخرجون من سفن الماضي. . بحارة مستكشفون. أشدّاء. مفتولو العضلات. سمر البشرة. كثيفو الشوارب، قادمون من مدينة «صور» اللبنانية، ليؤسّسوا «هيبون» الفينيقية بعد أن عثروا على الأمان والثراء. ثم توالوا. . رومان، وندال، بيزنطيون، عرب، أتراك وتوالت التّسميات: هبورجيوس ،هيبونة، هيبون، بونة، بلد العناب، بون، عنابة.

و«حين يتغيّر الاسم يتغيّر القدر».

بونة.. لها نكهة الخديعة.

تشبه امرأة جميلة وخائنة.

بونة.. لك فيها أن تحيا بسلام شرط ألاّ تثق بأحد.

لك فيها ألاّ تنام إلاّ مغمضا عينا وفاتحا أخرى مخافة أن يُغدر بك.

مدينة الجنان والشياطين. ساحرة. فائقة الحسن والغدر. يمشي فيها الموت مع الجمال يدا بيد.

قد تعشقك اليوم لكي تقتلك غدا.

«ريجيوس» ويعني «الملكي»!

وهل للملوك أمان؟

* * *

ساحة الثورة أو «الكور» كما درج الجميع على تسميتها.

لو كنت ممّن يسافرون ويحملون في حقائب أسفارهم ذاكرة الأمكنة، لوجدت لهذه الساحة توأما في مكانين آخرين من العالم: شارع الحبيب بورقيبة في تونس ورامبلا في برشلونة.

ثلاث ساحات متشابهات كثلاث قطرات من الدمع.

ساحة تعجّ بالحياة، يؤمّها على مدار السنة، أسراب العشاق والمجانين والمدمنون وأصحاب السوابق والمثقفون، والتلاميذ في طريقهم من أو إلى المدارس ،و المتقاعدون من أجل شرب قهوة وقراءة الجرائد أو الثرثرة عن الدنيا وأحوالها.

تحفّ المكان أشجار طاعنة في السن والاخضرار،أشجار عتيقة عالية شاهدة على قرن من الزمن، بارزة جذورها ملتفّة بالجذوع كأنّها أفاعي. أغصانها تشابكت في الأعلى فشكّلت مظلّة عملاقة خضراء وحين تطل الشمس يشكّل ذلك التشابك على الأرض أشكالا متلألئة متداخلة كسجّادة فارسية.

جلس نبيل إلى طاولة في وسط الساحة، مواجها المسرح الجهوي

عز الدين مجوبي.

ماذا تفعل هنا؟

انتبه لصوت قادم من داخله.

هل أنت أحمق؟ أحقا أتيت لملاقاة فتاة؟ هل جننت؟ أم أن حزنك على حنان جعلك تلتمس لنفسك أيّة ثغرة للهروب من التفكير فيها والتعلّق بأي شيء حتى لو كان مجرد كذبة؟لماذا حملت الأمر على محمل الجد؟ وماذا لو أن هناك خدعة ما؟ وأنك ستقع فريسة احتيال؟

لا تعرف أعداءك لا يعني أنهم غير موجودين!

كيف رضخت لإصرار توفيق ورسائل تافهة في بريد غير هام؟ عمليات الابتزاز والاحتيال دارجة عبر الانترنت. أنت تعرف ذلك. وربما للأمر علاقة بمقتل حنان؟

لكن الفتاة بدت صادقة وتعرف اسم والدتي وتحدّثت عن أدلّة ملموسة تملكها.

جال ببصره في المكان وملأت أنفه رائحة حياة صاخبة تدبّ بمحاذاة البحر وأسلم نفسه للأفكار..و تساءل. .أين البحر الذي كان هنا؟ كان هنا ذات زمن بعيد قبل أن يتراجع خطوة ويهدى المدينة هذا المكان

الجميل. الساحة «أو الكور» قلب المدينة النابض. المدّ والجزر غيّرا قدر هذا المكان. ذلك الجبار على بعد أمتار من هنا ليس حرا هو أيضا. إنّه محكوم بقدر المدّ والجزر. الشعوب الأوروبية القديمة كانت تعتقد بأنّ الموت يحصل في وقت الجزر، في اللحظة التي يخرج فيها البحر من الشاطئ تخرج الروح من الجسد، بينما اعتقد شعب التلينجيت من الهنود الحمر أنّ الظاهرة تنشأ لأنّ غرابا يحاول سرقة قطعة أرض من البحر حتى يطعم إخوته لكن القمر متمثلا في صورة امرأة يمنعه من ذلك! وابتسم نبيل لفكرة الغراب وقطعة الأرض.و تذكّر حكاية قرأها في صغره عن الغراب والثعلب وقطعة الجبن. ثم قال في نفسه. . البحر مارد عملاق منبطح على صدره يلعب الشطرنج مع الشمس، حين يهزمها يقذفها بالمرجان واللآلئ ،و حين تهزمه يمدّ لها لسانه متحدّيا، ثم يعيده داخل حلقه.

* * *

أفاق من تهويمه حين أبصر سيارة أجرة تتوقف أمام المسرح وتنزل منها فتاة نحيفة، معتدلة القامة، ترتدي بنطلونا بنيا ومعطفا بنّيا وتضع على رأسها قبّعة صوفية خضراء وتحمل حقيبة يد صغيرة سوداء. .

وصاح بصوت مكتوم. .إنّها هي.. هي!

و قام من مكانه وتوجّه ناحيتها ووقف وجها لوجه أمامها. قدّم نفسه

وسار بها إلى حيث كان جالسا.

جذب لها الكرسي المقابل لكي تجلس وقد أثار انتباهه شحوب وجهها. وجه لم تغادره بعد ملامح الطفولة وساوره شعور بأنّه يعرفها. ضغط بأنامله على جبينه مستنفرا الذاكرة . يا الهي ..أين و متى رأيتها ؟

تململ . و لأول مرة في حياته يفتّش عن الكلمات كي يبدأ الحديث .و بعد تردّد قال لها:

- أهلا ..أنا الأستاذ نبيل بن عريف.

ولم يعرف ما يضيف فقال:

- ..لديك ما تقولينه لي ؟ها أتيت كي أستمع لك.

ونظرت إليه نظرة بدت له فارغة. لم يعثر فيها على أي شعور أو معنى. ولم تقل شيئا إنمّا أخذت حقيبة يدها، وضعتها أمامه فوق الطاولة ثم فتحتها و أخرجت ظرفا و وضعته على الطاولة دائما دون أن تنطق بكلمة.

الصفحة 371:

تصحيح: بعد أن فقدت زوجها وابنها الوحيد ثم لما مات أبي تكفلت بي وحرصت على تعليمي، أحبتني ورعتني حتى إنها كتبت الشقة باسمي.

ومدّ نبيل يده. أخذ الظرف. كان بداخله دفتر العائلي. .أخرج

منه صورة ،و رفعها ونظر فيها، مدقّقا. ثم فتح محفظته وأخرج صورة أخرى، وأخذ الصورتين ورفعهما جنبا إلى جنب قليلا بمحاذاة وجهه وحدّق فيهما مليّا. طبق الأصل! لولا اختلاف بسيط. .في الصورة الأولى، التي بحوزته لكن يبدو واضحا أنّ الصورتين أخذتا في نفس اللحظة وبيد نفس الشخص.

أغرقته الدهشة.أحس كأنّ الزمن يتوقّف. مذهولا ،يجاهد كي يلملم أفكاره. بقي للحظات واجما يقلّب نظره بين الفتاة وبين الوثائق التي في يديه والصورتين.

ثم بذل جهدا ليقول لها:

- لماذا لم تأتي إلى سوق أهراس للبحث عني؟

قالت وقد غلّف ملامحها أسف شديد:

- فكرت في ذلك وفي كل مرة كنت أؤجل الأمر. ولكني كنت أراسلك باستمرار. وجدت عنوانك الالكتروني على النت واتصلت بك بالهاتف أكثر من مرة ولم ترد.

- ضيّعنا الكثير من الوقت.

لابد أنّه كان في نبرة صوتي ما يشبه البكاء.

وقالت:

- أنت بخير. .أنا التي ضعت بعد رحيل أمي. .حتى أنت لم أكن

متأكدة من أنّك حقيقة.

و صمتت قليلا ثم أكملت: في أيامها الأخيرة اشتد بها المرض وأحسّت بأنها ذاهبة إلى الموت. كانت تغرق في الكآبة وكنت أتألم لألمها وأحسّ بأنها تبكي رغم عدم قدرتها على ذرف الدموع. وتأكد لي أنها تخفي سرا رهيبا ولم تعد قادرة على تحمّل إخفائه. وليلة أو اثنتين قبل موتها قالت لي: سأخبرك بكل شيء وأرحل مرتاحة. .و أخبرتني عنك وعن زكريا، حاولت أن أجعلها تقول كل شيء. .لماذا هجرتكما، ما الذي حدث بالضبط. . لكنها ظلّت حتى آخر نفس فيها تردد كلاما واحدا / سليمة ابنتي. . أنت لست وحيدة في هذه الدنيا، لديك إخوة في سوق أهراس، زكريا ونبيل بن عريف. ابحثي عنهما. اعثري عليهما. عديني أنك ستفعلين. إنّه الشيء الوحيد الذي سيجعلني أرتاح في قبري. ابحثي عنهما، جديهما، ترجّيهما أن يغفرا لي /

كان صوتها ضعيفا منطفئا ولكن فيه الكثير من الرجاء. ووعدتها بأن أفعل ولم أكن على يقين بأنيّ سأفعل ولا إذا كان ما تقوله حقيقة أم مجرّد أضغاث موت. أمسكت بيدها، قبّلتها وطمأنتها بأنيّ سأبحث عنكما.

لا يمكن إلاّ أن نقول نعم لشخص يحتضر. . أليس كذلك؟

نعم. . وكم هذا مؤلم. تموت الأمهات مرة واحدة، وأمي تموت مرّتين.

و سكتت سليمة لبرهة وكأنّما قرأت في ملامحي رغبتي في أن تسترسل فأكملت:

حدّثتني أنها تعرّفت إلى أبي في مستشفى «بن رشد». كانت تشتغل عاملة نظافة وكان أبي يحضر بانتظام إلى المستشفى من أجل غسل الكلى. لم يكن لأبي من دخل سوى منحة التقاعد من مصلحة البريد والمواصلات حيث كان يعمل. تزوّجا في شقة عمتي الكبرى التي تعيش وحيدة بعد أن فقدت زوجها وابنها الوحيد في أحداث وبنها الوحيد ا أربع سنوات توفى أبي تكفلت بي عمّتي وحرصت على تعليمي أحبتني ورعتني حتى إنها كتبت لي الشقة باسمي.

* * *

كان نبيل يستمع إليها باهتمام بالغ وفي الوقت نفسه يحاول أن يركّب الصور بعضها ببعض وبدا له الفرق بين حياته السابقة وما اكتشفه الآن كالفرق بين صورة بالأبيض والأسود وصورة بالألوان.

كانت تتحدث مطرقة ولكن من حين لآخر ترفع رأسها وترنو إلى نبيل بحب وبحنان عجيب. أيصدّق هذا؟ هذه الفتاة الغريبة التي بالأمس لم تكن في حياته ولم تكن تعني له شيئا هي الآن أمامه. بل هي أخته! كم أن حياتك مادة دسمة لفيلم مثير! فتاة تطل برأسها من نافذة المجهول وتقول لك بأنها أختك. ثم تثبت ذلك بالدليل الذي

لا يحتمل الشك.

في فيلم سينمائي بوليودي كَان سيحتضنها، يضمّها بقوة إلى صدره ويبكي فتمتزج دموعها بدموعه، ثم يبدأن الرقص والغناء وينظمّ إليهما كل من في «ساحة الثورة»..

يرقص الجميع ويتغنون ويبكون ثم ينتهي الفيلم.

و لكن ،إنّنا هنا، على أرض الواقع.

الجميل أنّه عقد النيّة على التقرّب منها أكثر. وربما سيحبها بشكل كبير. . لعلّ وجودها في حياته سينقذه من آثار الهزّة العنيفة التي زلزلت كيانه. سوف يقترح عليها أن تأتي للعيش معه وسيهتم بها ويحميها .

سألها بحنان كبير:

- أنت في الثانوية؟

- لا. .في الجامعة. سنة أولى.

- جميل. وماذا تدرسين؟

- الفلسفة.

- هذا مثير للاهتمام. تحبين الفلسفة؟

- ليس كثيرا. كنت شغوفة بالأدب لكني اخترت الفلسفة لكي

أفهم الحياة.

- تعتقدين أنهم فهموا الحياة. .الفلاسفة؟!

- طرحوا الأسئلة وحاولوا الإجابة عليها. . على الأقل.

مدهشة هذه الصغيرة.كأنها تضع أول خطوة على طريق وعرة المسالك. كأنّها مثله مهووسة بالأسئلة الوجودية.. الحياة اللغز. الموت الذي لا أحد يدري أين يذهب بالأحبّة. معضلة الحب. ورطة الخطيئة الأولى. إشكالية الشهوة. فكرة الخلود.

- أشعر بالضياع.

قالت ذلك وأطرقت وانشغلت بفرك يديها بطريقة تنم عن قلق كبير.

وقف بينهما صمت مهيب. وأرسل نبيل طرفه إلى الجوار. مرّت سيدة محجّبة تدفع عربة طفل، ومرّ صبي مسرعا فوق دراجة، انطلقت من مكان ما أغنية «راي» وكسرت الصمت رنّة هاتف جوال، فعاد بنظرته إلى المكان. أشعل سيجارة، وراح من خلال خيوط الدخان المتصاعد ينظر إلي سليمة متفحّصا وجهها وعينيها وكأنّه يريد أن ينفد إلى أعماقها، وكانت منكسة الرأس وقد تكوّمت الدموع في عينيها،غير أنّها لم تبك وبدت له بريئة لكن مثقلة بالهم والحزن أكثر مما يجب لفتاة في سنها.

و مرّ وقت كأنّه دهر، ورفعت رأسها نحوه:

- إذا؟

- إذا. ..
- ألا تقول شيئا؟
- لا أدري ماذا أقول..

- حدّثني عن زكريا. كيف هو؟ هل يشبهك؟ أتمنى أن أراه.

و انقبض قلب نبيل. ليتها لم تأت على ذكره! وقال وهو يشيح بوجهه عنها من جديد:

- زكريا مات.

آه. .زكريا. .هذه البنت هي أختنا..هل تصدّق؟ نحن نجلس هنا الآن، معا... ترى أين أنت؟ هل عرفت الراحة؟ هل اكتشفت الأمر؟ هل التقيت أمي وأبي؟ هل أخبراك الحقيقة؟ هل تأثّرت؟ بكيت؟ كيف ستبكي وأنت لم تعد جسدا ماديا؟ هل تبكي الروح؟

و كانت سليمة قد قالت شيئا لكن أذنه لم تلتقط سوى آخر كلمة «مؤسف». .و همهم:

- نعم. نعم. . مؤسف جدا.

* * *

مدّ نبيل يده لمصافحتها. خطر له أن يضمها إلى صدره لكنه أحجم. نظر في وجهها وحاول أن يبتسم ولا يدري هل طاوعته ملامحه فرسمت على وجهه ابتسامةً أم شيئا آخر.

يدها صغيرة ودافئة. وانتبه أنها فعلا تشبهه.

- أودّ زيارة قبرها غدا.

- سأرافقك.

- لا. . لا داعي. أريد أن أكون وحدي. دلّيني على المكان فقط.

- مقبرة «زغوان».. اسأل الحارس وسيدلّك. أمي أوصتني ألاّ أبني قبرها...

ثم سألته بنبرة رجاء:

- هل سنبقى على اتصال؟

- طبعا. . أكيد. سأتصل بك. اهتمي بنفسك.

و تبعها نبيل بعينيه إلى أن اختفت في الزحام.

* * *

تركته سليمة هناك، متسمّرا في مكانه.كان قد تدارك قبل أن

أن تموتَ أمّك مرّتين

«إذا كنت لا أستطيع تغيير المستقبل

فإنني قادرة على تغيير الماضي»

طوني موريسون.

حين غادر المحكمة، كانت الساعة تشير إلى الرابعة والنصف.

إلى أين سأمضي الآن؟

كان قد حجز غرفة في نزل الشرق. نزل عريق يعود إلى سنة 1888، لكن لا يعقل أن يقبع في الفندق منذ الآن؟

قاد سيارته يطوف شوارع بونة، هائما على حزنه، بلا هدف ولا غاية. انطلق من ساحة الثورة إلى حي الماجستيك ثم الحي الراقي بوسيجور إلى حيّ ميناديا وبعدها الكورنيش. كان الجو معتدلا والرطوبة محتملة ثم عاد أدراجه إلى ساحة الثورة. ركن السيارة وقرّر السير تحت الأقواس

تبتعد وطلب منها أن ترافقه لتناول الغداء لكنها رفضت بأدب، قالت إنها مستعجلة وعمتها بانتظارها ولا تريدها أن تقلق لغيابها. فنجان قهوة آخر وسيجارة أخرى.يا لتخبّط الحياة/! تخبّطها وغرابتها وأسرارها وألغازها. .و فكر في الموت وماهيته وارتسمت أمامه لوحة الجوقة والعزف النشاز والمايسترو الحاذق وعصاه الرفيعة المجنونة والعازفون الذين يسقطون خبط عشواء.

ثم قام من مكانه وخطا مبتعدا، وتذكّر قول بريخت:

«لن تبقى الأشياء على ما هي عليه

و ما كان مستحيلا يصبح واقعا

قبل أن تغرب شمس اليوم»

و ابتسم بمرارة. نعم. لكنك يا بريخت نسيت أن تقول أن ما كان واقعا يصبح مستحيلا، والوهم يتحوّل إلى حقيقة والحقيقة تصبح سرابا، وما نكرهه نحبه وما نحبه لا نعود نطيقه وما نحلم به قد يتحقق، وما نحققه قد لا يعني لنا شيئا أبدا.

نعم. .و غير الهام قد يكون هاما والمستحيل قد يصبح ممكنا.

وهذا المكان كان بحرا و أصبح يابسة!

الراجلون والجالسون في المقاهي والواقفون والمارون بسياراتهم، النساء والرجال والشيوخ والأطفال، جميعهم بدوا له بلا رؤوس، مجرد هياكل بشرية تنتهي بعلامات استفهام.. وتساءل أيّة أسرار تختفي وراء هذا الخمار؟ ذاك الشعر القصير؟ في تلك الحقيبة السوداء؟ خلف هذا الوجه المثقل بالمساحيق؟ في جيب ذلك الجينز الضيّق؟ تحت ربطة عنق ذلك السيد الذي يبدو وجيها؟

ربما قاتل حنان هنا، بل كل القتلة، لعلهم هنا يمرحون في مكان ما في هذه المدينة أو في مدينة مجاورة. .ينامون بأمان ويستيقظون بأمان.

* * *

حلّ الغروب وشعر نبيل بأنّ رأسه قاب قوسين أو أدنى من الانفجار. شارع يسلمه إلى شارع ومقهى يرسله إلى آخر. وأعياه التشرّد فتوجه إلى الفندق.

دخل الغرفة ورمى بجسده المنهك فوق السرير حتى دون أن ينزع ثيابه ونام مثل ميّت.

حين أفاق كانت الثانية بعد منتصف الليل. حاول أن يعود للنوم فلم يستطع. كان وحيدا مع صوت الريح. شغّل الحاسوب وفتح بريده الالكتروني. وجد رسائل كثيرة. لم يفتحها ونقر، ولأول مرة باهتمام

القديمة قدم الاحتلال. كاد أن يتعثّر بمتسوّلة من مالي. وتذكّر توفيق يوم قال له «ذلك الأفريقي، لقد أعطيته دراهم ونهرته بألاّ يجلس في باب المكتب مرة أخرى» وعلّق نبيل قائلا.. «أفريقي؟ وهل أنت أوروبي؟»

لم تكن متسولة واحدة بل عائلة مجتمعة، الأم تفترش الأرض، تضع في حجرها رضيعا وعلى يمينها طفلة أو طفل ربما في العاشرة من العمر أو أصغر، والوالد يقف إلى اليسار مستندا إلى الجدار وبيده صحن من الألمونيوم وكانت عيناه تبرقان بوهج عجيب كلما مرّ أحد وأسقط في الإناء قطعة معدنية. لو أنها لوحة لرسامٍ لكان «البؤس الإنساني» أنسب عنوان لها. أخرج نبيل من جيبه بضعة قطع نقدية. وضعها في الإناء متعمّدا ألا يرفع رأسه نحو الرجل كي لا تلتقي نظرته بذلك الوهج.

لعلني لا أختلف عنكم! أنتم خسرتم أوطانكم وأنا خسرت حقيقتي.

ربما مضى وقت كثير وهو يتسكع مبعثرا كحطام قارب، تائها كظل فقد صاحبه. ربما صادف شخصا أو أكثر من الذين يعرفهم بحكم مهنته، وربما حيّاهم بتحية سريعة وابتسامة مقتضبة موهما إياهم بأنّه على عجلة من أمره كي لا يستوقفونه للحديث أو الاستشارة. لم تكن له رغبة في لقاء أحد أو الحديث مع أحد. كان يشعر كأنّه يلج ممرا ضيّقا معتما لا يدري هل سيخرج منه سالما. ينظر في عيون المارة ولا يراهم وفي لحظة بدت له كل الوجوه علامات استفهام،

لقطة معيّنة لكن يبدو أنّ الشخص المكلّف بإنزالها قد نام أو مات، أو ذهب ليتبوّل أو ليأكل في أحد المطاعم البعيدة ونسي الأمر تماما. لابد أن يحدث شيء، أي شيء ينقذه من هراء الذي يدعى «حياة».. كأن يستيقظ من النوم ويكتشف أن كل ذلك كان كابوسا، ويجد نفسه على سرير مستشفى، في غرفة أنيقة، وبجانب السرير طاولة فوقها مزهرية بها ورود، وفنجان قهوة وعلبة سجائر أمريكية . . وتقول له ممرّضة شقراء، وهي تبتسم كاشفة عن أسنان لؤلئية «حمدا لله لقد أفقت من الغيبوبة يا ماتر».

* * *

إذا.. أمك لم تكن ميتة.

تلك السنوات الضائعة في جحيم اليتم، ماذا يمكن تسميها؟ ذلك الزمن الممتلئ بالحزن.المعبأ بالتساؤلات. المشحون بالقلق. كل ذلك الوقت وأنت تحلم بحضن أمك، وتفتّش عن وجهها في وجوه النساء وتحاول أن ترسم لها صورة في خيالك ولا تستطيع.

كم هذا مؤلم.

تموت الأمهات مرة واحدة، وأمي تموت مرّتين.

كنت تعيش داخل كذبة أيها المحامي القدير. أين كل أخطائك

كبير، على «بريد الكتروني غير هام»

هكذا.. حين نهتم يصبح غير المهم هاما!

وجد رسالتين جديدتين..واحدة عن فوائد «الفياغرا».. ورسالة أخرى من جمعية عالمية تطلب أن يساهم في إنقاذ «الباندا». ضحك بصوت باكٍ. ولم لا أفعل؟ مستعد أن أنقذ الباندا في القطب المتجمد أو سمكة من فكّ تمساح في نهر الأمازون أو ذبابة من بيت عنكبوت في أدغال إفريقيا شرط أن ينقذني أحدهم من هذا الصداع الذي يكاد يطير بعقلي وأن أحظى بالنوم من جديد.

و فكّر لو يستطيع فصل رأسه عن جسده ورجّه بيديه رجّا عنيفا، ثم يحدث ثقبا في جمجمته، ويفرغ محتواها في زجاجة ويضعها على الطاولة قرب السرير ثم يركّب رأسه فوق عنقه من جديد وينام. ما أقسى الشعور بأنك خُدعت. وممّن؟ من أقرب الناس إليك. من الذين من المفروض أن يحموك من الخديعة. انتابته رغبة في الضحك دون انقطاع. فكّر أن يصرخ بأعلى صوته وبما يملك من طاقة.. وأن يفتح النافذة المطلّة على البحر ويرمي بكل محتويات الغرفة خارجا وهو يضحك ويضحك. .ثم يرمي بنفسه.

لا يمكن أن تكون الحياة هكذا ،بهذه العبثية، بهذه السخرية وهذا الجنون.. لا يمكن.

إنّ الأمر أشبه بمسرحية سخيفة. كان مقررا أن تنزل الستارة بعد

من هذا الخطأ الفظيع الذي ارتكبته الحياة في حقك؟ كانت أمك على قيد الحياة. في مدينة غير بعيدة. لم تكن في أقصى الغرب. ولا أقصى الجنوب. ولا في دولة أخرى أو قارة أخرى أو كوكب آخر..كانت فقط هنا.في مدينة عنابة.

كنت تستطيع أن تصل إليها بالسيارة..في غضون ساعتين من الزمن.

أية لعبة أشركتني فيها يا أبي؟

هل على الحياة أن تكون بهذا التخبّط؟ بهذه الفوضى. .هذا اللامنطق وهذا التشظي الرهيب؟ يا الله. يقال إنّ عذاباتنا اختبار لنا. هل يعقل أن يُختبَر الضعيف؟ أن يَختبِر القويّ الضّعيف؟ «وخلق الإنسان ضعيفا». أليس الاختبار للأقوياء فقط؟ وكأنك تضع شخصا مبتور القدمين على خط بداية سباق الألف متر، وتريد اختبار سرعته في الجري!

أود لو أعرف حقيقة شعوري نحوك الآن يا أمي. هل أنا أحبك؟ أكرهك؟ منتهى النذالة أن نشعر بالكراهية تجاه الموتى. ليس في الأمر عدالة لأنّ الموتى ليس باستطاعتهم أن يبادلوك مشاعرك.

الموتى لا يستحقون منّا سوى الرثاء. إنّ الموت يكفيهم.

* * *

وراح رأسه يجتر كل ما قالته له أخته وتهيأ له أنّ بصيصا من نور يضيء الممر المعتم الذي أحسّ أنه يسير فيه. وتردّدت في رأسه الكلمة..أختي؟ نعم. أختي! أختي! شعر بوقع الكلمة بداخله كسقوط حجر صغير في بركة ماء ساكنة. ولأول مرة منذ أسابيع أحسّ ببعض الصفاء في ذهنه وشيء من السلام. وشعر أنه بحاجة إليها. إلى أخته. كأنها ظهرت في الوقت المناسب. جيد. ألست القائل بأنّ الحياة أثمن من أن نضيّعها في التفكير وأجمل من أن نهدرها في التساؤل؟ وأنّه علينا أن نعيشها لا أن نفكر فيها؟ فلترض إذا بنصف الحقيقة ولتنظر إلى النصف الممتلئ من الكأس. .و لتقنع بما تكرّمت به الحياة عليك.. أقصد ما تكرّم به الموت. أنت لم تعد وحيدا يا رجل. كنت وحيدا وكانت وحيدة والتقيتما والوحيد للوحيد أنيس. لقد أصبحت لديك أخت. أن يكون لك أخ هو أمر عادي..ما المدهش في ذلك؟ إنّه النسخة المطابقة لك، رفيق اللّعب والتّعب والعرق والنكت الوسخة والمزاح الذي يتحوّل أحيانا إلى تشابك بالأيادي.. لكن الأخت.. آه.. النسخة الأخرى المطابقة المختلفة.. يا للروعة! يا لروعة ما يمكن أن تتقاسمه معها أو تفضي به إليها أو تحتفظ به من مشاعر لها، فقط لها. ثم، هل نسيت؟ ألست القائل بأنّ الماضي لا يمضي نهائيا وأنّنا كثيرا ما نصطدم به في طريقنا إلى المستقبل؟ كان يمكن أن يكون الاصطدام مميتا لكن انظر كيف هو رحيم معك. سليمة هديّة أرسلتها لك السماء. إنّه العظيم الذي لا يقطع إلا لكي يوصِل. .نحن لا نكسب تماما ولا نخسر تماما. أنت أدرى وأنت

المحامي المحنّك. في كل خسارة كسب وفي كل كسب خسارة.. لعله التوازن الذي تسير عليه الحياة. ولعلها الفكرة الوحيدة المضيئة في كل هذه العتمة التي تكاد تغرقك.

* * *

بصعوبة استطاع أن يغفو قليلا، معلقًا بين الحزن والفرح، وقد قرّر أن يذهب إلى المقبرة في الصباح ليقف على قبر أمه قبل أن يعود إلى سوق أهراس.

و بدا الصباح بعيدا جدا.

* * *

أفاق على صوت آذان الفجر من مسجد عبد الحميد بن باديس.. «الصلاة خير من النوم». صوت شبابيّ قويّ لكن فيه حدّة. توضأ. فرش منشفة على الأرض وصلّى. لم يكن متأكّدا من القبلة.

فكّر أنّها لابد أن تكون باتجاه البحر.

لا يدري لمَ بدا له ذلك.

لا يذكر آخر مرة أقام فيها الصلاة. لم يكن متديّنا ولا ملتزما. يحدث

ألاّ يصلي لأسبوع كامل ثم يوم الجمعة يتوضأ ويقصد المسجد. لم يكن يرى في ذلك نفاقا أو تقصيرا وكان يتمنى لو أنّ العلاقة بالله لم تحدّدها صلاة معيّنة، في وقت معيّن ولو أنها تُترك شأنا داخليا بين العبد والخالق. كانت مجرد أفكار تمر به أحيانا ولا يجرؤ على قولها لأحد.

ختم صلاته وبقيَ لبرهة جالسا في مكانه يدعو بدعاء يوم الجمعة.

وتذكّر حنان وطنّت في أذنه فجأة عبارة قالها ذات يوم توفيق الخبيث:

جمعة بلا حبيب ليست مباركة.

إمبراطور الخراب العظيم

أمي. .

حضرات الراقدين تحت التراب. .

يجب أن أعترف لكم. حضّرتُ مرافعة رائعة كنت متيقّنا أنها ستعجبكم.وضعت فيها موهبتي وخلاصة تجربتي في علم الخطابة وفن التأثير، لكن للأسف ما إن ولجتُ المقبرة حتى طارت الكلمات بعيدا كسرب حمام يفرّ من طلقة صياد فاشل.

آخ. .إنّ رأسي الآن فارغة تماما وقلبي مثقوب كجوربٍ قديم.

إنّني فارغ تماما، مثل بئرٍ شربت ماءها حتى آخر قطرة، مثل روايةٍ مكتوبة بالحبر السّري. كأنّي تينة طازجة حوّلها عصفور جائع إلى قشرة جوفاء آيلة للريح. كأنّ يدا عملاقة امتدّت بداخلي وأفرغتني منيّ ،انتزعت أحشائي، اقتلعت قلبي ورئتيّ وأمعائي ومعدتي وكبدي وطحالي..

ورمت بهم في البحر.

«إن ما توصلت إليه اليوم هو من عند أمي». قالها «نابليون بونابارت» صاحب الإمبراطورية العظيمة التي شملت معظم أرجاء أوروبا. وأنا، المحامي نبيل بن عريف أقول. .إنّ ما توصّلت إليه اليوم من خراب هو من عند أمي و... أبي.

بالله عليك، كيف واتتك هذه الفكرة الرهيبة؟ أيّ خيال كنت تملكين؟ أيّ إبداع وأيّة قدرة على الابتكار؟

من أوحى لك بحقن موتك في وريد حياتي؟

هل اتّفقتما على الكذبة أنت وأبي؟

هل هدّدك بالقتل لسبب ما؟

هل ساومك على موتك؟

هل دفع لك مقابل أن تختفي؟

هل اقترفت جرما بشعا جدا لدرجة أنك فضّلت أن يحبك ولداك وأنت ميتة على أن يكرهاك وأنت على قيد الحياة؟ هل أنت من الذين يؤمنون بأنّ لا شيء يمحو العار سوى الموت؟

أو ربما اعتقدتما بأنها مجرد كذبة لن تؤذي بل قد تفيد.
مجرد كذبة صغيرة إذا لكن متقنة مثل جريمة كاملة.
وفي البدء كانت الكذبة.

«إنّ الكذبة تستهلك طاقة كي تدوم، وتولد قلقاً من اكتشافها، وتهدر وقتا في إخفاء نفسها. أما الحقيقة، فتصنع طريقها؟»

هراء! هراء!

إذا كانت الحقيقة بتلك القوة يا أوغسطين، لماذا تأخذ كل هذا العمر لكي تصنع طريقها؟ للأسف، حين تتخلص الحقيقة من وحل الكذب العالق بكعب حذائها يكون الطريق قد شارف على الانتهاء.

لو كانت الحقيقة كافية وقوية ما احتاج الناس إلى الكذب.

لكن.. كيف لم تتسرّب الحقيقة من الجيران؟ أقارب أبي؟ أمي زكية؟ نفيسة الفقمة البيضاء؟ هل كانت أمي زكية تعرف وأخفت الأمر؟ لا أستطيع حتى أن أتأكد منها الآن. لقد رحلت هي الأخرى.

هل كان أحد يعرف القصة أم أنّ الأمر دُبّر بينكما فقط؟

* * *

بحسب أوغسطين، يا أمي، فإنّنا «نعلم أنّ شيئا يموت حين يبطل أن يكون بعد أن كان ». عين المنطق. لكن أنتِ أبطلت أن تكوني بعد أن/ لم تكوني/؟

وشعر برغبة في الضحك. من نفسه. من أفكاره. يقف أمام القبر أعزلَ تماما. روحه واهية كبيت عنكبوت. لو أنّ فراشة حطّت على كتفه في تلك اللحظة لأسقطته أرضا. ورغم ذلك، وعوض أن ينخرط

في وصلة بكاء ساخن، يقف متجمّدا كرجل الثلج. حيرته فاغرة دهشتها .يداه مضمومتان خلف ظهره. قدماه منفرجتان قليلا. رأسه منكسة كفضيحة. شفتاه تقبضان بشدة على عنق صرخة وعيناه تحدّقان في القبر، بينما رأسه يحرّك جَمر الأسْئِلة ويفلسِفُ القضية. قضية حياته وتلاعب والديه بوجوده و ظلمهما له ولأخيه.

كل إنسان يستطيع أن يصبح فيلسوفا إذا هشّم روحه الظلم.

الظلم يجعل منك فيلسوفا أو ثائرا. .

بالطبع لا أستطيع أن أثور. .و على من سأثور؟ على الموتى؟

الوحيدان اللذان يملكان الأجوبة لأسئلتي هما أنت وأبي، وأنتما الآن على الشاطئ الآخر.. .عليّ إذا أن أبتلع ثورتي، مع علمي بأنّ كل ثورة لا تخرج إلى العلن ترتدّ إلى جوف صاحبها وتنفجر يوما ما، بداخله، كقنبلة.

أمي... سأحجز هذا المكان هنا، بجانبك. سأشتريه كي أدفن فيه. سنقضي بقيّة الوقت معا في انتظار القيامة. سيكون وقتا طويلا على ما أظن. أرجو أنّك لا تمانعين. لا تفزعي. لن أطالبك بشيء. لن أقلق نومك. لن أطرح الأسئلة. أريد أن أكون هنا ممدّدا إلى جوارك. سأكون صامتا. ساكنا تماما. مطيعا كطفل فقير يتيم يخشى إن أُثار الفوضى أن يحرموه من حلوى العيد. .إلا إذا أحببتِ أن نكسر حاجز الصمت ونتحدث.

إيبييه. . لدينا الكثير الذي سنقوله أليس كذلك؟

لكن ،لحظة ،ما الذي سنتحدث فيه مثلا يا سيدة الغياب الكبير؟

لم تكوني حاضرة في يوم ختاني ولا يوم تحصّلت على شهادة الابتدائي بتميّز، ولا يوم شجّ جبيني ورغبت أن أبكي لكن أمي زكيّة وبّختني دون أن تكلّف نفسها مسح دموعي. صرخت بي (لا تبك. أنت رجل. الرجل لا يبكي). يومها لم أكن أريد أن أكون رجلا. كنت أريد أن أبكي وأن يأخذني أحد في حضنه. لم تكوني موجودة أبدا لكي تُنسج بيننا الحكايات، لكن لا تهتمّي. سأجد حتما موضوعا أتحدّث فيه. فأنا المحامي. صانع الكلمات وفارس البيان . لا تعلمين بأنيّ محامي؟ آه، صحيح ،لم تكوني موجودة أيضا يوم عدت إلى البيت بعد أن أدّيت القسم كانت أمي زكيّة هناك ولم تتفوّه بكلمة. كانت مشغولة بنشر الثياب المبلّلة على حبل الغسيل. (أُقْسِمُ بالله العليّ العظيم أن أؤدِّيَ أعمالي بأمانةٍ وشرفٍ وأن أحافِظَ على سرِّ المهنة وتقاليدها وأهدافها النبيلة، وأن أحترم القوانين) وفعلا. وفيّت بقَسَمي يا أمي، يمكنك أن تشعري بالفخر. ولم أخسر قضية أبدا. ولم أقبض رشوة أبدا. اطمئني، ابنك لم يساهم في فساد العدالة. سأحكي لك حكاية. في يوم قصدني رجل من أعيان المدينة كي أنقذه من تهمة رشوة لفّقت له على حد قوله. أحسست بأنّه مظلوم وقررت الوقوف إلى جانبه. في اليوم الموالي، دخلت المكتب ووجدت فوق الطاولة التي في المدخل طردا مغلقا بإحكام ،و قالت لي السكرتيرة

لقد أحضرها ذلك الرجل من الأعيان. وطلبت منها أن تطلبه بالهاتف لكي يحضر في الحال لأمرٍ يهمه.

استقبلته بوجه مكفهّر، مدّ يده لمصافحتي فتجاهلتها وأشرت له حيث تقبع «هديته» وطلبت منه أن يأخذها ويرحل.

وطبعا رفضت قضيته.

أتعلمين؟ يمكننا أن نسلّي انتظارنا بكثير من الحكايات وقد أُنجح في إثارة اهتمامك.

صحيح أنيّ لا أعرف ما تحبين ولا ما تكرهين، لكني أظن بأنّ كل الأمّهات يحببن سماع الحكايات من أفواه أبنائهن. سأحكي لك عن طعم الوهم اللّذيذ، عن مذاق الحقيقة الحارق، عن ظلم يختبئ في جيوب العدالة، عن عدل ينام تحت أكمام القضاة، عن أمّ تهتم بحبل الغسيل أكثر من اهتمامها بأبنائها، عن أب لم يحتضن ابنه قطّ، عن امرأة تدعى حنان، كانت تحبّني أكثر مما يحبّ السمك الماء، عن طفل ساذج أوهموه بأنّه حين يكبر سيفهم، وحين كبر انفجر اللّغم الذي زرعوه في حقل براءته وشوّه تفكيره.

* * *

« أما الحقيقة، فتصنع طريقها».

ماذا يفيد أن تعرف الحقيقة حين لا يبقى على نهاية الطريق سوى خطوتين؟

ماذا؟ ما زال الطريق أمامي طويلا؟ تعتقدين ذلك حقا؟

نعم. ربما ما يزال لكي أكتشف حقائقَ أخر.. أو لكي أُشبع مخزون الذاكرة قبل أن أتقاعد من الحياة. على فكرة. .حين أتقاعد من مهنتي، سأكتب مذكّراتي كمحام، ما رأيك؟ كثير من المتقاعدين يفعلون ذلك. بعض الشخصيات الهامة تفعل ذلك، بعض الرؤساء أيضا والسياسيين والملوك حين ينتهون من وضع آخر لمسة خراب على خريطة أوطانهم يتقاعدون، يجلسون في حدائق قصورهم ويكتبون مذكّراتهم. أو سأكتب سيرتي الذاتية وأستهلّها بهذه الجملة: / وجدتُ قبر أمي. صار بوسعي أن أموت وأنا أبتسم. . أو. . انتظري. لدي فكرةً أفضل. سأحذو حذو الايطالي انطونيو تابوكيو وأكتب رواية أردم فيها فراغات الذاكرة منك. سأخترع عالمي معك. سوف أحكي عن الذي لم يحدث بيننا أبدا. الحياة التي لم نحيها معا. كأم وابنها ،مثل القديسة مونيكا وابنها أوغسطين. لكن أعدك لن أجعلك تبكين ولا لثلاثين ثانية. سأكون مطيعا كما ترغبين. سوف أكتب أحاديث لم نقلها، أسفارا لم نقم بها، سأكتب عن نقاشاتنا الحادة التي انتهت بي أقبّل رأسك، اختلافنا واتفاقنا وعن ذلك اليوم، هل تذكرين؟ أخبرتك عن حنان ثم جئت بها إلى البيت كي تتعرّفي إليها. أُعجبتِ بها جدا.

قلت لي وأنت تبتسمين بحب: لا يهم إذا كانت مطلّقة أو أكبر منك سنّا، إذا كنتما على وئام ومتفقان تزوّجا.

يا الله. .يا لك من أمّ متفهّمة ورائعة.

أتدرين يا أمي ماذا يفعل من لا يملك تاريخا؟ الأمر بسيط جدا. من لا يملك تاريخا فليخترعه. كلّ البشر لهم الحق في أن يكون لهم تاريخ وذكريات ولهم الحق في أن يكونوا سعداء. .لا تنسي بأنّ ابنك رجل قانون. أريد العدالة في كل شيء. من حرم الذكريات السعيدة فليرسمها، ولو بريشة الوهم ،لا يهم، ولو بألوان خياله.

الخيال أيضا مصدر سعادة، بل لعله مصدرها الوحيد.

* * *

نسمة باردة، هاربة من البحر، أخرجت نبيل من هذيان محموم مكتوم. رفع رأسه. شعر بألمٍ حاد في أسفل ظهره وتشنّج في رقبته. رفع رأسه أكثر وأرسل بصره في الأفق البعيد.

ثم نظر حوله. في السماء تكاثفت الغيوم استعدادا للمطر. كانت هناك امرأتان عند قبر، وغير بعيد عنهما رجل عند قبر آخر. ومضى نحو طريق الخروج بخطوات قصيرة لا صوت لها محاذرا أن يدوس على القبور التي كستها الحشائش ولم يبق منها سوى نتوءات كأنها

سلاحف هامدة، وفكّر أنّه لابد أن يعود إلى هنا يوما لكي ينظّف المكان ويزرع شجرة عند قبرها، ثم تساءل عن جدوى ذلك وإذا كان المكان الخارجي سيؤثّر بأي شكل من الأشكال على العظام النخرة التي بالداخل.

و بدا له أنّه يقف على شفا حفرة من اليأس والحزن.

وحانت منه التفاتة ورآها في معطفها البنّي وقبعة الصوف الخضراء التي جعلت وجهها يبدو كوجه طفلة في العاشرة. رآها تقف خلف سياج المقبرة، تحدّق فيه، ثم تخرج يدها من جيب المعطف وتلوّح له بالتحيّة. ورفع يده ببطء، وبادلها التحيّة ونصف ابتسامة.

وساوره شعور مباغت بالاطمئنان، وبأنّ أجمل حكايات حياته على وشك أن تبدأ.

وطفح قلبه بالفرح.

من الذّي يستطيع أن يفوز حين يكون القدر غريمَه؟ ومن يستطيع، و لو بمِنْسَأة الحبّ، أن يهشّ الموت: ذلك المايسترو الحاذق الذّي يدرّب جوقته على فنون القفز فوق مصائر البشر؟ سؤالان تنبري هذه الرّواية للاقتراب منهما بخيالٍ ولغةٍ يراوغان الموت والحياة معًا.

إنّ المفاجآت التّي تعترض سبيل المحامي نبيل بن عريف، بعد أن يفقد حبّه، تجعله والقارئ معًا مبرمجًا على الانتصار للحياة والفرح، بعيدًا عن المنطق الرّومانسيّ السّاذج/ قريبًا من منطق الرّوح التّي لا تنكسر.

ISBN 978-9931-677-26-0



مكتبة نوميديا